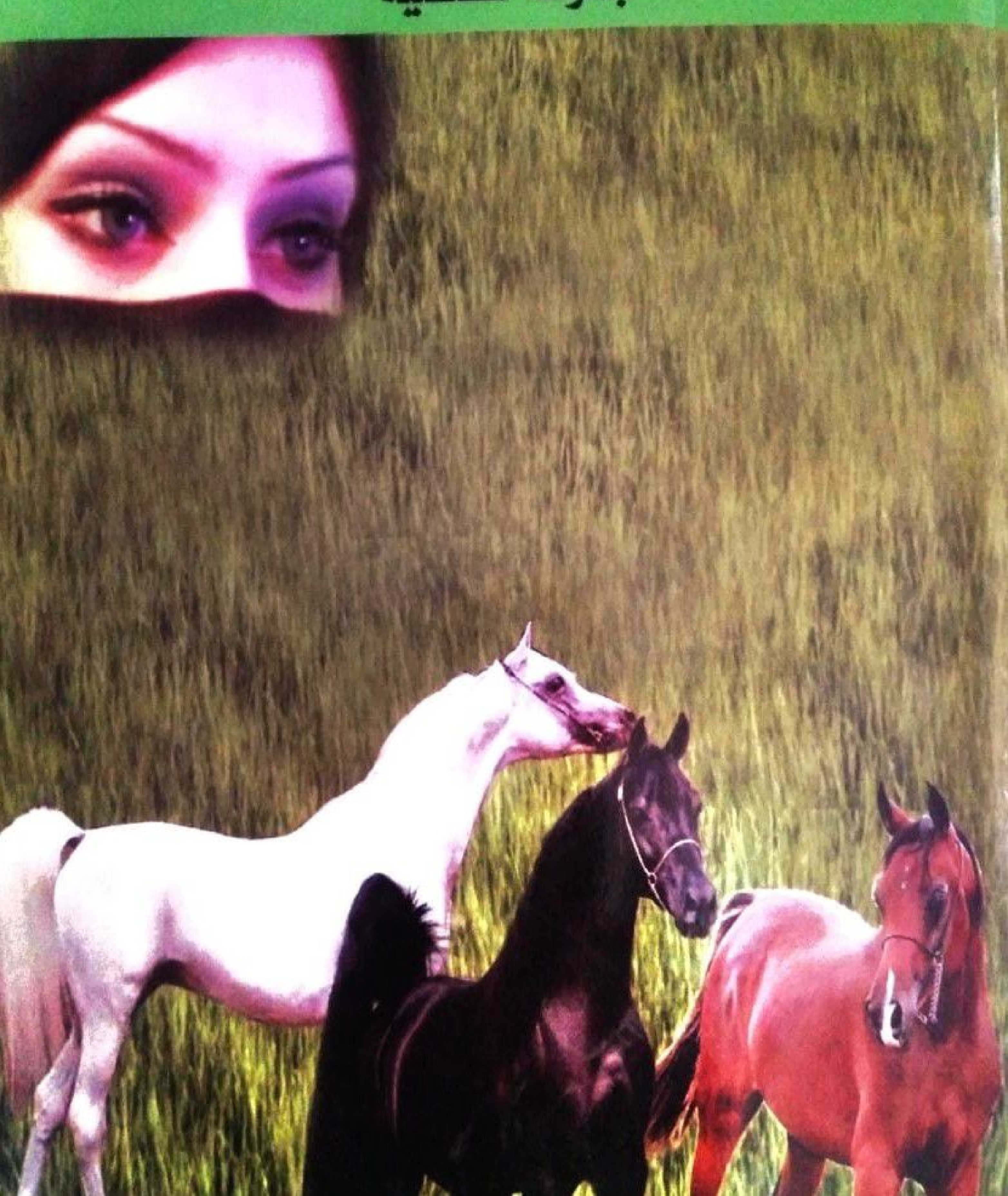
البربري وخضراء العينين

مجموعة قصصية



البربري

وخضراء العينين

الكتاب: الـبريـري وخضـراء العينين

المؤلف: د. جبير صالح القرغولي

تصميم الغلاف والإخراج الفني: أمل عثمان

الطبعة: الأولى ٢٠١٢



سورية - دمشق

جوال ٠٩٣٢٤٧٢٠٩٦- ٠٩٣٢٠٠٢١٢٦-

هاتف: ٠١١٢٧٢٤٢٩٢

E-mail:ammarkordia@yahoo.com

د. جبير صالح القرغولي

البربري
وخضراء العينين

(حكايات وخواطر)

الإهداء

إلى أستاذي الجليل ....

ألاستاذ الدكتور أحمد مطلوب (رعاه الله)

شرّفتني إذ منحتني الشهادة ، وشرّفتني ثانيةً حين أجلستني إلى جوارك ،، لنمنحَ باحثاً مثلها.

حينَ أسمعك أنبهر ، وحينَ تحدثني أبهتُ .....(فأبهتُ حتى ما أكادُ أجيبُ)

زرتُكَ يوماً ، فرحبتَ بي ورحتَ تتحدثُ أحاديثَ حلوةً ، هي جزء من ضيافتك ، وما أحلاها!

ذكرتَ ولعَ العرب بالعيون ، وتفضيلهم إياها على سائر المحاسن .

فإليكَ أشكو عينين ، في مثلهما قالَ شاعر مدنف:

وعينان قالَ الله كونا فكانتا

فعولان بالألباب ما تفعلُ الخمرُ

وأمامك أُثني عليهما ، وأدعو الله سبحانه أن يرعاهما ، لأنهما ألهمتاني هذا العمل ، ودمتَ ذخراً

جبير



المقدمة

قرأتُ مسودة هذا الكتاب أكثر من مرة ، فوجدتُ أكثر من سبب يدعوني إلى الفرح والاعتزاز بما كتبتُ وقرأتُ ، ولم أسلم في كل قراءة من هواجس وخوف ، يثيرهما فيّ ظنٌ ، لا أشك في صوابه ، هو أن (عين الرضا عن كلّ عيب كليلة) ، ففي وسط هذا الكم الهائل من الآراء النقدية التي أسهبتِ في وضع القواعد والنظريات الحاكمة لمسيرة النص ومبدعه ، لابد من الخوف والهواجس.

ورحت أستعيد آراء الأصدقاء من أهل الأدب وغيرهم فيها. وكانت الحصيلة مشجعة ، ولكنّ خوفي وهواجسي ظلا كما هما ؛ لأن قواعد النقاد ونظرياتهم ما تزال كما هي ، شاخصةً أمامي. غير أن نصاً لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أحيا فيّ الأمل ، إذ وجدته لا ينكر حرية الأديب ، ولا يلزمه بأن يكون أسيراً لأية قاعدة أو نظرية ، إذ يقول: (إني من أنصار الحرية في الأدب ، هذه الحرية التي لا تؤمن بالقواعد الموضوعة والحدود المرسومة والقيود التي

فرضها أرسطوطاليس ؛ فتشرّع للأدب في العصور الحديثة كما شرّع أرسطوطاليس للأدب في العصر القديم ؛ إنما الأثر الأدبي عندي هو هذا الذي ينتجه الكاتب أو الشاعر كما استطاع أن ينتجه ، لا أعرف له قواعد ولا حدوداً إلا هذه القواعد والحدود التي يفرضها على الأديب مزاجه الخاص وفنه الخاص)[1].

ويواصل الدكتور طه حسين حديثه ، مزيحاً قدراً كبيراً من مخاوفي: (إنما أقرأ الأدب بقلبي وذوقي ، وما أتيح لي من طبع يحب الجمال ويطمح إلى مثله العليا. والكاتب المجيد عندي هو الذي لا أكاد أصحبه لحظات حتى ينسيني نفسي ، ويشغلني عن التفكير ، ويصرفني عن التعليل والتحليل والتأويل ، ويسيطر عليّ سيطرة تامة ، تمكّنه من أن يقول لي ما يشاءُ دون أن أجد من نفسي القوة على أن أعارضه أو أقاومه أو أنكر عليه شيئاً مما يقول)[2].

أغراني هذان القولان- على الرغم من كفايتهما لديّ- بمزيد من القراءة والتقصّي ؛ لعلي أجد مزيداً مما يشجّع الكاتب على الاطمئنان عند عرض خواطره على الجمهور ، فوجدت شيئاً من ضالتي عند الأستاذ توفيق الحكيم ؛ حين أشار إلى أدباء عظام — ولستُ منهم ولن يخطر ذلك في بالي - استخدموا القصة ؛ ليصلوا بها إلى شيء عميق دقيق في كيان الإنسان (ومع ذلك فقد انتهوا

---

(١) فصول في الأدب والنقد: ٥٠.

(٢) نفسه.

إلى التجرد بعض الشيء من العنصر القصصي ، ليعرضوا حقيقة الإنسان ومشكلات الزمان في قالب أدبي طليق ، هو أحياناً قالب المذكرات ، أو اليوميات الحقيقية التي لا خيال فيها ، وأحياناً قالب التأريخ أو المقالة أو البحث الذي لا اختراع فيه)[٣].

بين دفتي هذا الكتاب من عالم القصة أشياء غير قليلة... إن فيه شخوصاً وأزمنة وأمكنةً وعُقداً وسرداً وبدايات ، أما النهايات فإن عدداً من حكاياته خالٍ منها. من حكاياته ما هي أحاديثُ قلبٍ وهمس روحٍ ، ومنها ماً يسعى إلى رسم شخصية والكشف عن عالمها الداخلي. إنها تسعى إلى الحديث عن الإنسان مجرداً من كثير من شواغل الحياة وأقنعتها ، الإنسان الذي هو (ليس مجرد جسم يتحرك في محيط البيئة المادية ، من ريف ، أو حضر ، أو منزل ، أو نادٍ ، أو مكان عمل ، مما درج بعض القصاصين عندنا على تسميته بالحياة الواقعية.. ولكن الإنسان أيضاً – فوق ذلك ، وأكثر من ذلك- ((عقل)) يتحرك في عوالم فكرية.. وهو ((روح)) يسبح في معانٍ شعرية)[٤].

أملي أن يجد القارئ في الأوراق التي بين يديه شيئاً من ملامح هذا الإنسان.. شيئاً من عقله ومن روحه.

* * *

---

(٣) فن الأدب: ٢٢١.

(٤) المصدر نفسه: ٢١٩.

البربري وخضراء العينين

البربري في هذه الحكاية كهل أشيب ، من ذلك الطراز الذي قال فيه عمرو ابن كلثوم ، وهو يصف الأشاوس الذين مضوا في إعلاء مجد قبيلتهم بعزم لايلين:

بشبان يرون القتل مجداً وشيب في الحروب مجربينا

هو كهل أدمن الحبَ ، فألِفَه هذا كما تألف القطة بيتاً ، يملؤه الحنان ، بيتاً أُسُسُه الوئام وجدرانه المحبة وسقفه المروءة وأثاثه العفة.

كهل له قلب تكسرتِ على شاطئه أجيال من أمواج الحب ، كما تكسرت على قلب المتنبي نصال على نصال.

ليس البربري في حكايتي هذه مثل ذلك الغجري في قصة (الحسناء والغجري). ذلك الغجري في تلك الحكاية معشوق ذو سطوة وجبروت ، اقتحم عاشقته كما يقتحم الغزاة المدن الهادئة الوديعة ، اقتحمها وفي عينيه نظرة تلتهب ، وغادرها أنقاضاً وعلى شفتيه ابتسامة نصر شامتة. لقد نال مبتغاه وخسر الخلود.

وقد يسأل سائل:

أليس الخلود كثيراً على غجري؟

حينها سأقول:

كلا ، لأنه بطل قصة ، وأبطال القصص مرشحون للخلود مثل أبطال الحياة. ولكنّ قلة من هؤلاء المرشحين ينالون تلك الجائزة الرائعة.

البربري في هذه الحكاية إنسان من هذا العصر. عصريّ يرتدي البدلة الإفرنجية ، ويتأنق في ارتدائها بشكل لافت ، حتى لقد تناهى إلى سمعي أن نسوةً رشَّحنَه ليكون أكثر الرجال أناقة في محيط عمله. ولقد غبطتُهُ على تلك المنزلة الرفيعة ، لأن أيّ ترشّحٍ محمودٍ تتفق عليه النساء لا يقلّ أهمية عن الترشَّح لنيل جائزة نوبل أو جائزة الأوسكار.

هو موظف في إحدى دوائر الدولة ، يذهب إلى عمله صباحاً ، ليعود إلى بيته عصراً ، ليقرأ ويشاهد نشرة الأخبار السارة بشفافية ، ويتبادل الآراء مع عائلته أو أصدقائه بشأنها بروح ديمقراطية.

شفافية الرؤية وديمقراطية النقاش ، والذهاب صباحاً إلى العمل والعودة عصراً إلى البيت نِعَمٌ وعطايا من الله يجب شكرها ، فشكر وأطال سجدة الشكر ، ولكنه بدأ يشعر بالجفاف. بدأت عواطفه تنضب ، وأخذت الكلمات تتعثر على لسانه مرتبكة ، وهي في طريقها إلى شفتيه ، وأُصيب البلبل الشادي الذي كان يرفرف في

تجويف صدره سعيداً بالخَرَس ، بعد أن تيبَّس جناحاه.

ولم يبالغ في الاحتجاج ، احتجّ ولكنّه لم يغالِ ، لأنّ هذه النكسة واحدة من ضرائب العمر ، ولعلّ في شفافية الرؤية ، وفي نشاطاته اليومية الأخرى تعويضاً عن خسارته.

ورآها مجدداً... رآها بعد احتجاب سنين. كان يراها في أحايين كثيرة فتثير في نفسه الدفء والبهجة ، كان يراها مثلما يرى الشمس ، بعيدةً غايةَ البعدِ ، ولكنها تثير في النفس البهجةَ وفي القلب الدفء عند تراكم الجليد. صورة رائعة متناسقة الأبعاد والألوان ، أجملُ ألوانها خُضْرةُ عينيها. ساحرةٌ حين ترنو وآسرةٌ حين تشدو. في صوتها أنين النّاي وهمسُ الرياح وبَوْحُ الرَّبَاب.

كان يرنو إليها من بعيد ، إذ حال بينه وبين الاقتراب منها كهلٌ آخر من أصدقائه ، أحبها.

ولمروءته أكبرَ هذا الحب وقدّسه ، وتمنى أن يُتَوّجَ بما يصبو إليه صديقُه الكهل.

تساءل بعد سنين ، وقد اكتسحته خُضرةُ عينيها ، أهي امتحانُ السماء للكُهول أم هديتها إليهم ، رأفةً بهم وثواباً لهم؟

وكان لأهلها رأي في الكهول يخالفُ رأيَها ، فرفضوا صديقه حين تقدم لخطوبتها.

قادته مسارات الحياة بعيداً عنهما ، فلم يَعُدْ يراهما ، وقد علم أن ما بينهما أصبح ذكرى.

ونُقِلَ من مكان عمله إلى حيث يعمل صديقه. وأخذ يزوره من حين لآخر متفقداً. وفي يوم كان جالساً عند صديقه في مكتبة الكائن في الطابق الثالث من بناية مكونة من خمسة طوابق ، فإذا هي أمامهما ، جاءت لزيارة صديقه ، لوفائها ونبلها وثقتها بنفسها.

كلنا يعرف كيف تهتز الأشجار عند عصف الريح وكيف يرتجف المحموم. ولكن ما رآه من صديقه كان شيئاً آخر.

نهض واقفاً مبتسماً ، ثم فغر فاه ولم يُطْبِقْه. جحظتِ عيناه وتورّد خداه وارتعش كتفاه ، وظلا يرتعشان ، فذكّره مرآه برقصة (هز الچتف) الشعبية.

سلّمتِ مبتسمةً ، فبادلها التحايا ، ثم غادر مسرعاً.

وفي اليوم التالي اتصل بصديقه ليطمئن عليه وقال:

وقفتُ أمسِ في الشارع العام تحت نافذة مكتبك ، متوقعاً أن تُلقيَ بنفسك من الشباك إلى الشارع. لو كنتُ مكانك لفعلت ذلك ابتهاجاً.

- لو كنت أقوى على الحركة لصعدت إلى أعلى البناية وألقيت بنفسي إلى الشارع ، ولكني حين جلستُ تيبستِ أطرافي.

وصار كأنه يراها للمرة الأولى. لم يبدر منها أيّ شيء يُشجّعه ، ولكنه راح يفكر فيها ، مثلما يفكر في أمنية تهفو لها النفس.

عاد الارتواء إلى عروقه والنُّضْرةُ إلى أحلامه. وراح البلبل المنزوي كئيباً في تجويف صدره يشدو من جديد ، وهو يرفرف بجناحيه. وطال تفكيره فيها.

صارت جزءاً من أحلامه. وتمنى لو أنه استأذنها قبل أن تصير ، لأن أحلامه ليست مثل كل الأحلام. لا شيء في أحلامه ، ولاسيما السعيدة منها ، والتي يرجو ألاّ يُعقبها صحوٌ ، لا شيء فيها من هذا العصر. فلا مدن ولا شوارع مبلطة ولا إشارات مرور ، بل خيام ورمال ومراعٍ متباعدة وقطعان من الخيول والجمال والأغنام.

محطُّ أحلامه حياة الفروسية والرعي والمراعي الفسيحة وكثبان الرمال.

أميرٌ من أمراء البادية أو فارسٌ من فرسانها. قائدٌ مغولي أو بربريّ أو زعيمٌ قوزاقي.

زعامةٌ ومبدأ ، أخلاقُ الفرسانِ وهمةُ الصعاليك ، والحياةُ البسيطة الساذجة ، وقطعانُ الخيول في المراعي الخُضْر ، وغاراتُ الفرسان ، أو حتى غارةُ صعلوكٍ واحد:

مطلاً على أعدائه يزجرونَه   بساحاتهم زَجْرَ المَنيحِ المُشَهَّرِ

بسطامُ بن قيس وربيعةُ بن مكدّم وَعروةُ بن الوَرْد وعنترهُ بن شدّاد وحاتمُ الطائي.

چنكيز خان وأتيلاّ وتاراس بولبا ، وجيفارا وهو يجتاز صحراء المعاناة ليصل إلى غابات بوليفيا ، ليبدأ ثورةً جديدة ، بعد أن خيّبتْ آمالَه الثورةُ الأولى.

لهذا كان من الأفضل أن يستأذنها قبل أن يجعلها بطلةَ أحلامه. إنه يخاف على عينيها رمالَ صحراه ، ويخشى على خضرتهما

جفاف رياحها.

كثيراً ما عطف جوادَه وعاد إلى خيمته ليجدها في موقفِها الأول عند وداعه؛ وهو يقود فرسانَه إلى المجهول، فيستزيد من وجهها الجميل نظراً، يُسكِتُ عُواءَ الذئب الجائع، أو يُطْفِيء لهيبَ النار المستعرة في أعماق الحشا.

لا يذكر مساراً آخرَ لأحلامه، فلا مناصبَ ولا رفاهيةَ ولا ثراء. خيمتُه قصرٌ منيف، وسيفُه المنقوشُ النّصلِ حِصْنٌ منيع، وجوادُه بساطُ الريح.

قرأ يوماً تحقيقاً مُصوّراً عن موريتانيا في مجلة (كل العرب). شدّتْ أنظارَه صورةٌ من صور التحقيق، يبدو فيها درويشٌ، في العقد الثالث من العمر باسطاً يديه إلى الجانبين، مُغْمض العينين، وعلى شفتيه ابتسامةُ رضا، لا يجود بمثلها الزمان إلا قليلاً. وجهُهُ نحيلٌ مستطيلٌ، ولحيتُه سوداء خفيفة. ويبدو في الصورة مقبض سيفه المستقيم.. سيفٌ من سيوف الطوارق المميزة، وحول عنقه خيطٌ صوفيّ أسودُ غليظٌ، في وسطه ثلاثُ خرزاتٍ خُضْر.

ووجد نفسه يقتطع الصورة من المجلة. هي ثاني صورة يقتطعها يوماً من مجلة. كانت الأولى صورة ممثلة إيطالية قديمة، اسمها (جيوفانا راللي)، اشتُهرتْ في نهاية الستينات من القرن العشرين، وكان حينها طالباً في الدراسة الإعدادية. هي مثالٌ تفخرِ به الشعوب السمراء، وتباهي بجاذبيته الأعراقَ البيضاءَ، وفي مقدمتها العِرقُ

الآريّ الذي ملأ الدنيا ضجيجاً ، وهو يفخر بمزاياه.

جلس يوماً ، هو وأخوه الأصغر (محمد) ، ذلك الفارسُ الرائعُ النبيلُ الوسيمُ ، الذي سقط مضرجاً بدمائه ، وهو يدافع عن حدود الوطن.. أخوه...شلالُ حزنه الذي لا ينقطع جريانُه ، جلساً يتصفحان (ألبوماً) من الصور. فأشار إلى صورة الدرويش قائلاً:

هي الصورة الثانية التي اقتطعتها في حياتي من مجلة. اقتطعتها لروعة تعبيرها.

تأمّل محمد الصورة ملياً ، وقبّلها وقال ضاحكاً:

وهي الصورة الثانية التي قبلّتها في حياتي. قبّلتها لأنها ذكّرتني بصورتي ، التي كانت أولَ صورة أقبِّلها ، وما أزال.

* * *

طال تفكيره فيها. وفاجأته يوماً بزيارة إلى مكتبه ، بعد أن نُقلَتْ هي الأخرى إلى المؤسسة التي يعمل فيها ، والتي صارتْ مثل شباك صياد ، تلتقط القلوبَ المفعمةَ حباً وخيالاً.

رآها بعدَ نقلها مرات عدِّة ، ولم تخطر زيارتها إياه في باله.

وراح ينتظر زيارتها الأخرى التي وعدته بها ، مثلما ينتظر فلاحٌ حصتَه من الريّ؛ ليسقي حقل سنابله الذي يعقد عليه الآمال.

وأينع حقله واكتنزتْ سنابله ، وأشرقتْ في دنياه ابتسامتها.

ولم يُطلِ الصمتَ والانتظارَ ، فقرر أن يبوح لها ، وأراد شيئاً مميزاً ، ولا شيء أكثر تميزاً وروعة من الشعر. وهو ليس بشاعر ،

فاختار أبياتاً لنزار قباني ، يقول فيها:

إذا تَصَفّحْتِ يوماً يا بنفسجتي هذا الكتابَ الذي لا يُشبه الكُتُبَا

تباركي بحروفي، كلّ فاصلةٍ كتَبْتُها عَنك يوماً أصبحتْ أدَبَا

كتبتُ بالضّوء عن عينيكِ هل أحدٌ سِواي بالضّوءِ عن عينيكِ قد كَتَبا

وابتسمتْ عيناها قبل شفتيها ، وحين ابتسمتا ازدادتا خُضْرة وسحراً.

أطالَ يوماً النظرَ في عينيها ، فقالت مبتسمة:

أخاف من نظرتك هذه..إنها مثلُ نظرة صقر.

- لا تخافي ، لأنه صقرٌ أُحِيلَ إلى التقاعد! إني اتساءل: في ظل خُضْرةِ عينيك وسوادِ عيوني ، ماذا ستكون ألوان عيون أبنائنا إذا تزوجنا؟.

- سأحمدُ الله على أي لون. المهم ألاّ تكون عيوناً وقحة.

وصارت عيناها مفتاحاً لخزائنه.

زارته يوماً في مكتبه زيارة سريعة. دعاها إلى الجلوس ، فاعتذرت قائلة:

لديّ شواغلُ كثيرة.

- قلتُ شيئاً بسيطاً ، أرجو أن تسمعيه!

فجلستْ ، فقال:

عيناك وعصا سيّدنا موسى ، كلتاهما معجزةٌ ، تلك ضربت

الحجرَ ففَجَّرتِ فيه العيونَ ، وهما مسّتا قلبي ، ففجّرتا في عينيّ العيونَ.

نظرتِ إليه ملياً ، وقالت:

الحمد لله.. لو كنتُ واقفة لسقطتُ مَغْشياً عليّ!

غادرتْهُ وعلى شفتيها وفي عينيها ابتساماتُ رضا.

ضحكاتها وهذه الابتسامات نبعُ سعادةٍ فيّاض.

حين يلتقيان تنسابُ الكلمات من شفتيه انسيابَ المياه على منحدر.. لا يَملُّ الحديثَ ولا تَسْأمُ هي الاستماعَ. يُحسّ أنّها ترغبُ في المزيد ، وكان سعيداً بتلبية النداء.

أصدقاؤهما المقرّبون يعرفون حقيقةَ ما بينهما.. نقاءَ ما بينهما وعفّتَه.

كلاهما محاطٌ دوماً بالأصدقاء. حين يزورها في مكتبها تتشاغلُ جليساتُها بالقراءة أو تقليب الأوراق ، فاسحات له المجالَ ليحلّقَ في سمائها عندليباً ، يشدو أناشيدَ الصباح ، ولكنّهن كنّ يتسمّعنَ مبتسمات. جعبتُه ملآى دائماً.

- كلّ قيثارات العالم تشدو حين تداعب أصابع العازفين أوتارَها ، إلا قيثارتي ، فهي لا تقطر ألحانَها إلا حين تداعبُ أوتارَها عيناك.

زارته يوماً تصحبها صديقتان فاضلتان. جلسن محتشمات رصينات.

نظرتِ إليه مبتسمةً ، فراحتِ قيثارتُه تشدو:

تصورتُ نفسي يوم الحساب ، وقد أمسكتُ كتابي بيميني متأهباً لدخول الجنة ، فأمسك بي مَلكان صالحان لينتزعا ما في قلبي من غِل. فتحا صدري واستخرجا قلبي ، وانتزعا منه نُتفاً سوداء ضئيلة ، ولكنهما راحا ينظران بدهشة إلى قطعٍ من الجواهر باهرةِ الحسن ، فأمسكتُ أيديهما بإشفاق ولهفة ورجاء ، وأخذتُ بتقبيلها راجياً إيّاهما أن يُبقيا جواهري فيٍ مكانها.

سألاني مبتسِمَين بحنانٍ:

لماذا؟

- بها أُديمُ حبّي لمحبوبتي.

- من أين جئتَ بها؟ إنها الجواهرُ نفسها التي كنا ننوي أن نملأ بها قلبَك.

سألَتْه مبتسمةً:

لماذا لا تدوّن هذا الكلامَ ، إنّه يستحق التدوين.

- هل أنتِ راضية؟

اكتفتِ بالابتسام. ولكنها تتطلع إلى المزيد ، وإنّ لديه الكثيرَ ، فقيثارته لا تتوقف عن الشدو.

قال لها يوماً:

قلتُ فيكِ ما لم يَقُلْه جميل في بثينة.

- لا تبالغَ!

- أنا لم أبالغ إلا في الفناء فيكِ حباً.
- ماذا قلتَ؟
- ما لم يَقُلْه جميل في بثينة.
- أنا مَنْ يقرر هذا لا أنت. ماذا قلتَ؟
- ذهبتُ الأسبوع الماضي إلى (دائرة النفوس) لاستبدال هوية الأحوال المدنية. كان الازدحام شديداً. تسلمتُ هويتي الجديدة ، وأسرعتُ بمغادرة البناية فَرِحاً ، ورحتُ أقرأ البطاقة... لقد كتبوا في حقل (لون العينين).. خضراوان.

فاكتشفتُ أني أنظرُ إلى الدنيا بعينيك.

هل قال جميل لبثينة مثل هذا الكلام؟

واكتفتْ بالابتسام.

وافترقا.. لسببٍ قاهرٍ افترقا. وتزوجتْ رجلاً نبيلاً. كلاهما ، هي وزوجُها نبيلان.

واحترمَ الكهلُ الأشيبُ قرارَها ، ودعا لهما بالسعادة والهناء ، ووقف بعيداً يرنو إليهما ، وهو لا يكفّ عن الدعاء.

وقفَ بعيداً مثلَ فارسٍ مغولي ، يمتطي جواده في مرعىً فسيح ، وقطيعُ جياده يرعى الحشائشَ اليانعة ، وهو ينظرُ إلى الأفقِ البعيد متسائلاً إنْ كان سيجدُ في غدٍ مرعىً فسيحاً مثل هذا.

* * *

كتابة بربرية

(أوراق عمرها خمس سنين)

ابتسم صديقي الكهل ، وهو ممدّد على فراشه ، حين أنهيتُ قراءة مسوّدة (البربري وخضراء العينين) وقال:

لقد أحسنتَ التعبيرَ ، فقلتَ على لساني ، ما لا أستطيع قولَه. تذكرتُ الآن حكاية رجل طلبَ من (كاتب عرائض) أن يُدَبِّج له طلباً ، يعرضُ فيه مظلمته. ذكر موجزاً لمشكلته ، وتولى الكاتب صياغة الطلب ، وحين راح يقرأ على مسامعه ما كتب ، أخذ هذا يبكي قائلاً:

هل مرت بي كل هذه المصائب وأنا لا أدري؟

- إن الفضل كلّه لكَ فيما سمعتَ. لقد أحببتَ كما ينبغي للإنسان الحقيقي أن يُحب ، واستجبتَ أجملَ استجابةٍ لدواعي الهوى. أما ما كتبتُه أنا فليس إلا كلمات ، وشتّان ما بينَ خفقات القلب وذلاقة اللسان! إذا رضيتَ بالمسوّدة سأبدأ بكتابتها على الآلة الطابعة.

- أود أن أعـرض عليـك أوراقـاً كتبتُهـا قبـل سـنين ، في بـدء معرفتي بها.

- قلْ لي أكثرَ من هذا ، كنْ أكثرَ تحديداً.

- في بدايات إحساسي بها.

- قلتُ لكَ: كن أكثر تحديداً.

- في بدء مصارحتي إياها ، أيامَ كنتُ أسيرُ في الهواء ، وأتنزه بين النجوم.

- ما أصنع بها؟

- إقرأها ، لعلّ فيها شيئاً مفيداً ، شيئاً يصلحُ للقراءة.

- أين هي؟

- في تلك المحفظة السوداء.

أشار إلى محفظة ، وُضِعَتْ على أحد رفوف المكتبة. نفضتُ الغبار المتراكمَ عليها ، وناولتهُ إياها. أخذ يقلّب أوراقاً فيها. أخرج عدداً من الأوراق ، تَصَفّحها مبتسماً ، ثم ناولني إياها قائلاً:

إقرأ بصوت مسموع ، ثم قلْ رأيك.

ورحت أقرأ:

الأربعاء ٢٠٠٧/٣/٢١ الساعة السابعة مساءً

إنه عيد الربيع (والعيد يملأ أضلعي عيداً) كل مصادر النور معطلة... الكهرباء (الوطنية) عاطلة منذ أمسٍ ، ومولدة الكهرباء العامة ، التي تغذي شوارع المحلة عاطلة منذ أسبوعين ، ولا أمل في إصلاحها قريباً ، ومولدتنا الكهربائية الخاصة عاطلة أيضاً.

بدأتُ أكتب في ضوء الشموع ، وفي داخلي فرح طفولي ، نشأ من رومانسية هذه الحالة ، التي تشبه زهرةً رقيقة نبتت في رماد حريق.

في داخلي بهجة طارئة غريبة ، كأنها كائن فضائي حطّ على الأرض محاطاً بالرهبة والغموض. إن دواعي البهجة نادرة هذه الأيام في حياتنا بشكل مؤلم ، وعلى الرغم من هذا ها هي ذي خفقة ناعمة في فؤادي ، مثل خفقة جناح في حقل خَضِلٍ ، تُنبيء بحب الحياة ، يرافقها طيفُ ابتسامة ، افتقدته المرايا منذ سنين. سرور فجّره عزمي على تدوين هذه السطور ، وتطريزها بنفثاتِ روحٍ هائمة منذ زمن موغل في القِدَم.

(وجَعُ الكتابة) عنوان كتابِ للقاص مهدي عيسى الصقر ، تذكّرتهُ مدفوعاً بقناعة تؤيد صدق هاجس المؤلف ، أو يقينه بأن الكتابة حالة هي خارج السياق الاعتيادي للزمن ، فالتقطتُ الكتاب من أحد رفوف المكتبة ، ووضعته أمامي على المنضدة متأملاً لمدة ، وابتسمتُ حين اكتشفتُ أني ، بدون وعي اتخذتُ هيئةَ الصورة المرسومة على غلاف الكتاب ، إذ أسندتُ رأسِي إلى ذراعي الأيسر ، وسَرَحْتُ ببصري بعيداً.

قد تكون الكتابة وجعاً ، وقد تكون علاجاً للوجع ، ولكنها بلا شك قاربُ النجاةِ الذي يُبحِرُ بنا بعيداً عن دنيا الأحزان.

أقول دائماً: إن الكتابة مخاض ، لا يستأذن الوليدُ خلاله في أنْ يرى النور... يراه في دنياه الجديدةِ ، وفي عيني أمهِ ، أو في وجهها.

فجّر عزمِيَ على الكتابة ، مثلما تتفجّرَ عينُ الماء فيلمٌ شاهدتُهُ أمس في إحدى القنوات يحكي قصة شاعرٍ إنكليزي عاش في القرن التاسع عشر.

سلّط الفيلمُ الأضواءَ على قصة حبٍ عاشها الشاعر بسرّية ، تفرضها

تقاليدُ المجتمع آنذاك ، من خلال رسائلَ تبادلها العاشق ومحبوبته.

عشتُ الأحداث بروحي. نقلتني الكلمات بعيداً عن أجواء مدينتنا الجريح. كانت قصتهما قاربَ نجاة ، شراعُه أوراقٌ سطّرا عليها نبضات قلبيهما.

إن خفقاتِ القلوبِ شيء نفيسٌ ثمين ، يجدرُ بنا الحرصُ عليه.

عَطَلُ الطاقة الكهربائية المزمنُ دفع إلى ذاكرتي قول أحمد شوقي:

وتعطلتْ لغة الكلام وخاطبتْ عـينيّ في لغـة الهـوى عينـاك

ولا أدري أهذا العطلُ الشاملُ هو الدافع إلى استذكار بيت شوقي أم تشبثي بأية ذريعة لذكْر عينيك؟ شيءٌ رصينٌ في داخلي ، مزيّتهُ الصراحةُ والتواضعُ والنفورُ من اللجاجة يُحيل إلى الدافع الثاني.. عيناك هما سببُ استذكار ذلك البيت.

قلتُ لك مرةً:

لم أتمنّ يوماً أن أحوز ما يملكه الآخرون ، إلا (أنشودة المطر) للسياب ، ولا سيما قوله:

عيناك غابتا نخيلٍ ساعة السَّحَرْ أو شرفتان راح ينأى عنهما القَمَرْ

طالما تمنيت أني قائل هذه القصيدة. كنتُ سعيداً بما تصورتُ أنه نُبلٌ وقناعة ، إلى أن عرفتك ، فاكتشفتُ الحقيقةَ ، عندها تلاشى الأملُ في النبل وانهارتِ القناعة.

اكتشفتُ أنّ تلهفي كان على العيون ، وليس على القصيدة ، على الرغم من إيماني بأنها من روائع الشعر العربي الحديث.

كشفتِ معرفتك الستارَ عن شوقٍ وتوقٍ وتلهّفٍ كامنٍ في أعمق

الأعماق. تَفَجَّر كلّ هذا في لحظة فيضاً زاخراً من الخواطر ، وكأنّ عصا سحريةً ضربتِ حجراً ، فانفجرتِ منه عينٌ من الماء العذب ، سيرتوي منها الظامئون.

هذه خواطر لم تطلب الإذن في أن ترى النور. خواطر معتّقة في دهاليز الروح منذ أمد بعيد ، يعبق شذاها حاملاً ذكريات السّبات الطويل. خواطر أودعتها الأعماقَ قبل أن تُشرقي في دنياي ، خواطر أرى على كلٍ منها بصماتك جليةً ، وأحسّ بارتعاشة كلٍ منها وهي تستذكر بريق عينيك.

فيضٌ دفّاق من الخواطر يجيش في داخلي. خواطر تنتسب إليّ ، إلى دنياي ، تحمل اسمي مثلما تحمل بصماتك ، سأنتقي منها بلا ترتيب ، ولا تنسيق لأصنع باقة ، تختلط فيها نبضات القلب ، كما تختلط الأزهار في الحقول البرية.

كانت هذه الخواطر تغفو في سبات طويل ، إلى أن أشرقت أنتِ ، فبعثتِ عيناك الدفء في دنياي ، فتململتِ ودَبَّتِ فيها الروح ، فأطلقتِ لنفسها العنان ولم تستأذن.

تسألينني عما أدراني أن هذه بصماتك ، وأنا حديث عهد بك؟

قبل أن أجيب عن هذه السؤال ، أود أن أحمد الله سبحانه ؛ لأنك تشهدين على أني حديث عهد بك ، أي أني حديث عهد بالسعادة. وهنا تلحّ عليّ أبيات للشاعر حافظ إبراهيم ، أثارت إعجاب الأستاذ عباس محمود العقاد ، فوقف عندها متأملاً ، وأرجو أن تثير الإعجاب في نفسك أيضاً ، وأن تنصاعي للرجاء الكامن فيها ؛ لأني بنيت على إعجابك بها وانصياعك لما فيها من رجاء آمالاً عريضة. وسأرجيء

الحديث عنها ؛ لأجيب عن سؤالك العزيز ، وكل أسئلتك عزيزة ، وكل ما تقولينه لحن من ألحان السماء.

ما أدراني أنها بصماتك؟

لِمَ هذه الثقة وهذا الاطمئنان ، ولا دليل ولا شاهد؟ أليس من الأفضل – من باب الحذر- أن نبقي في نفوسنا بذرة من الشك؟

تذكّرتُ قصة فيلم سينمائي قام ببطولته الممثل الإنكليزي الشهير (سين كونري) وأدى فيه دور رجل أفاق عاش في بدايات القرن العشرين ، وزار جبال الهمالايا في أثناء تطوافه في جنوب شرقي آسيا.

في منطقة منعزلة في هذه الجبال ، يلتقي مجموعةً من الرهبان ، فتثير اهتمامهم أيقونةٌ قديمةٌ ابتاعها الرجل من بائع (خردة) ، فيسجدون له ، ويعاملونه بأسنى آيات التبجيل ، ثم يذهبون به إلى مدينتهم المقدسة النائية ، الكائنة في قمة جبلية منعزلة. ويقابله كبيرهم بترحاب عظيم ، ويطلب من سكان المدينة الذين احتشدوا السجود للإسكندر الكبير.

أجيال متتابعة توالت ، وهذه المدينة النائية تنتظر بلهفة اللحظة التي يعود فيها إليها الفاتح العظيم ، الذي أرسى أساسها. وها هو ذا اليوم الموعود ، لقد عاد الإسكندر ، وآن الأوان لأن يستعيد الأمانة التي ائتمنَ عليها الراهبَ الأكبرَ الأولَ. كنز عظيم يفوق الوصف. كدس هائل من المصوغات والحليّ والمصنوعات الذهبية ، سلّمها الكاهنُ الأكبر إلى رجلٍ لا يعرف عنه شيئاً إلا أنه يتقلد أيقونةً ، سمع من أسلافه أن الإسكندر كان يتقلدها.

إن عندي كنزاً من الخواطر ونفثات الروح ، وأمامي امرأة ، لا أشك للحظة في أنها بين النساء مثل الإسكندربين الرجال ، وهي تحمل من

الدلائل ما يفوق رموز أيقونات الدنيا كلها ، فَلِمَ لا أسلمها الأمانة بقناعة ويقين؟

أعيدي قراءة ما كتبتهُ عن (أنشودة المطر) والدلالات النفسية فيها تجدي أني تعلقت بها منذ حداثتي. وإلى اليوم ، وقد تجاوزتُ الخمسين ما تزال هذه الرائعة – عندي- على عرشها بين قمم الفن شامخةً ، غير أنها اليوم ازدادت سحراً وشجىً. صار لقراءتها وقعٌ أعمق ونغمةٌ أعذب. لقد صرتُ اليومَ أعرف مَنْ أناجي حين أقول:

عيناك غابتا نخيل ساعة السَّحَرْ

يرى الدكتور جابر أحمد عصفور ، وهو يدرس الأنشودة أن بدراً أحب فتاة خضراء العينين ، رابطاً بين خُضرة سعف النخيل وعيني محبوبة السياب. وهذا وهم ؛ لأن غابة النخيل ساعة السحر ، والظلام يلفها تبدو داكنةً ، لا تفصح عن ألوانها.

ليس لون العيون ذا أثر في عمق مشاعر المحب ، ولكن ما أجمل أن يتطابق النشيد وحالة المنشد! تصوري حالة عاشق يتلو الأنشودة مترنماً ، وهو يستذكر عيني محبوبته الخضراوين.

وأرجو ألا تمعني في الدلال!

احتلت العبارة الأخيرة آخر سطر من الصفحة التي كانت بين يديّ ، فقلبتها لأواصل القراءة ، فوجدت الصفحة التالية فارغة ، فشعرتُ بأسف شديد ، بعد أن أفقت من حلم جميل ، طُفْتُ في أثنائه بين غابات نخيل البصرة ، وتسلقتُ جبال الهمالايا ، ورافقتُ الرهبان البوذيين. لقد كان حلماً جميلاً حقاً.

سألته:

أهذا كل شيء؟

- وهل بعد هذا شيء؟ ألمْ أقل لها وللدنيا كلها إني أحب، وإني سعيد بحبي؟

- لماذا لم تتولَ أنت الكتابة عن البربري العاشق ما دمتَ قادراً على مثل هذا الشدو الجميل؟ لقد جعلْتَني أتمنى أن أكون مكانَها ؛ لأحظى بهذا النعيم.

- وهل تتصورني مجنوناً لأحبكَ أنتَ مثل هذا الحب؟ هل أعجبتك الكتابة حقاً؟ ألا تريد أن تبدي بشأنها ملاحظة؟

- شيء صغير، لعلك لم تلتفتْ إليه، أو نسيته. أشرتَ إلى أبيات من الشعر ولم تذكرها.

- أعتقد أن الإشارة إليها تكفي. هذه الإشارة ستبقي القارئ متشوقاً، متطلعاً. وفي هذا من الإثارة ما فيه.

- ولكنْ ستبقى الفكرةُ مبتورةً.

- هذا هو أجمل ما فيها. هذه الفكرة المبتورة تُشبه في نقصها الجميل تمثال فينوس المبتورة اليدين، ذلك الذي استقطبَ الأنظارَ أكثر من أي تمثال لها لا يشوبه نقص.

- أنتَ أكثر خبرة مني في شؤون الجمال. ماذا ستصنع بهذه المسودة؟

- سأرسلها إليها.

- ستعجبها.

- إني أرجو شيئاً آخر غير الإعجاب. أتمنى أن تصدّق ما فيها.

- هل من شيء آخر؟

- أمنيـة أخـيرة ، وأرجـو أن تشـاركني في رفعهـا إلى السـماء ؛ عملاً ببيت الشعر القائل:

فقلـتُ ادعـي وأدعـو إن أنـدى   لصـوتٍ أن ينـاديَ داعيـانِ

- ما هي؟

- أن تكون خضراء العينين من نصيبي في الآخـرة. أن يجمعني الله سبحانه وإياها في جنات الخلد!

- أما هذه فلا ؛ لأني وبكل صراحة صرتُ أتمنـى أن تكـون مـن نصيبي أنا.

- يا لك من لئيم!

* * *

البلبل والحسناء ذات الجديلة

الكل يبتهج لمرآها ، يهتز ويطرب ويتملّكه السرور ، فلقد خُلِقَتْ لتشيع في الحياة البهجة والطرب ، وتصيب أكثرَ الأشياء رسوخاً وثباتاً بالاهتزاز ، وتملأ النفوس بالسرور.

وهي تعلم هذا ، وتعرفه جيداً. تقوم وتقعد وتمشي وتتكلم ، وهي تعلم هذا. عَلِمَتْهُ منذ أنْ تعلمت المشي. أول كلمة نطقت بها هي (أنا) ، وأول جملة أنعمتْ بها على المحيطين بها.. على المزدحمين حولها هي (أنا حلوة).

تطاولتْ زهرة الكاردينيا على زهور حديقتها كلّها ، لأنها نالتْ من ذات الجديلة ما لم ينله أحد.

قرّبتْ رأسَها منها ، وهي مغمضة العينين لتتنسم عطرها ، فأسكرها شذاها. ثملت الزهرة من طيب عطرها.. عطر ذات الجديلة ، فدارت الدنيا من حولها ، وصارت الأطيار تحت الأشجار ، فلم تشعر إلا وهي تلصق بتلاتها بشفتيها المطبقتين ، حاملتي أقدس أسرار الجمال.

ومنذ ذلك اليوم ، وفي كل صباح تنافس زهرة الكاردينيا إشراقة الفجر جمالاً ؛ ببتلاتها البيضاء المشوبة بأثر خفيف من أحمر الشفاه الأخاذ.

بسببها فقدتْ نسمات الربيع شيئاً من نقاء روحها ، فراحت تداعب وجوه الحسان بلا براءة ، وآثرتِ الجمال بنصيب من طراوتها كبير.

ملاك الحب ، السعيد بمرافقتها أكثر أقرانه استهلاكاً للسهام ، فما إن ينطلق بصحبتها حتى تنطلق سهامه في كل الاتجاهات ، تاركة قلوب العاشقين مِزقاً غير مأسوف عليها ، فيعود أدراجه ليملأ الجعبة من جديد.

وهي تمشي بتؤدة ، دون أن تكلّف نفسها عناء الالتفات ، لتحصي أعداد ضحاياها السعداء ، أو تسأل عنهم. تسأل أحياناً ، دون أن تلتفت. تسأل عمن بقي بمنجاة من سهام ملاكها ، ماهر التسديد.

والتفتتْ يوماً ، لا لشيء إلا لترى ممن يصدر ذلك الشدو الساحر ، الذي جعلها تحسّ أن يومها ذاك ليس مثل باقي الأيام.

إنه شدو يشبه الآه ، وما أجمل الشدو حين يشبه الآه!

ورأته قريباً منها. نظرتْ إليه وأمعنت النظر ، فقرأتْ في عينيه الواسعتين قائمة طويلة بأسماء الشُّدَاة ، منذ أن درج أول قلب على وجه الأرض ، أولئك الشُّدَاة الذين صاغ من آهاتهم شَدْوَه.

اعتادتِ أن تنال كلّ ما تريد. يكفي أن تنظر فيسرع حراسها الذين يجيدون قراءة نظراتها ؛ ليضعوا بين يديها ما نظرتِ إليه. تسلّق أحد الحراس شجرة التوت متلصصاً ، وبسط الآخرون تحتها شبكة ، وقبل أن ينثروا فوقها التراب والحبوب ، ألقى البلبل بنفسه من فوق شجرة التوت إلى الشبكة سعيداً بإساره ، الذي ستحسده بسببه البلابل وطيور الدنيا كلها.

وضعوه في قفص ، أدخلوه غرفتها سجيناً في قفص ، وفي وجهه فَرَحٌ لم يعرف يوماً طريقه إلى وجه سجين.

سألته:

من أنت؟

- أنا بلبل كما ترين.

- لا أشك في أنه اسم مستعار. قل لي حقيقة من أنت. إنّ ما سمعته ليس شدو بلبل ، بل نداء قلبٍ وترنيمة روح.

- إنه صدى صوت أبي.

- من هو أبوك؟

- ألا تذكرينه؟ إنه البلبل الذي أفنى عمره كلّه ، وهو يشدو إليك.

- البلبل العجوز؟!

- لقد شاخ قبل الأوان ، وظل اسمك على شفتيه إلى أن ودّع الحياة ، وفي وجهه ابتسامة عاشق أسعده الوصال.

- وجئت لتثأر له؟

- بل جئتُ لأموت مثل ميتته. لقد سقاني حبَك مع أول رشفة من عصارة الحياة.

- إن في صوتك شيئاً لم يكن في صوته!

- لأن في قلبكِ اليوم شيئاً لم يكن فيه بالأمس.

- أحب أن تسمعني شدوك الجميل هذا كل يوم.

- أهذا كل شيء؟

- بلى

- ألا تفكرين بي؟ أعني ألا تفكرين فيما أحب؟

قالت ، وهي تشيح بوجهها عنه:

أيعني هذا أنك يمكن ألا تحب أن تشدو لي؟

ولم يجب ، ولم يشدُ.

وحين لم يشدُ أدارت له ظهرها ، وانصرفت إلى المرآة. مرآتها الصقيلة الأنيقة ، تتأمل وجهها. حلّت ضفيرتها الكستنائية ، وأمسكت بالمشط وراحت تسرّح شعرها ، ثم ضفرته من جديد ، جاعلةً إياه جديلة واحدة.. جديلة واحدة أطاحت بآلاف القلوب ، وهو ينظر إليها ، يتنازعه الحب والألم. ثم تمددت في فراشها ولم تلتفت إليه. وبقي ساهراً دون أن يحول نظره عنها.

صباح اليوم التالي ألقت عليه التحية ، وغادرت الغرفة مسرعة دون أن تكلمه.

تكرر هذا الحال يومين.. تلقي عليه تحية الصباح وتغادر الغرفة مسرعة دون أن تكلمه.

فاجأته ضحى اليوم الثالث بسؤاله:

أتحبُ أن تشدو شيئاً؟ اشتقت إلى شدوك.

أفاقت روحه وأشرق وجهه وانساب شدوه مثل إشراقة الفجر.

أصغت إليه إصغاءً زاد في طربه. قليلاً ، ثم التفتت إلى مرآتها الصقيلة. حلّت ضفيرتها الكستنائية وأمسكت بالمشط وراحت تسرّح شعرها بدلال ، ثم انتبهت إلى انقطاع الشدو.

التفتت إليه ونظرت في عينيه الواسعتين ، ولم تقرأ فيهما أسماء المحبين ، بل الحزانى.. كل حزانى الأرض... الذين طُردوا من الجنان أو فقدوا الأبناء أو أضاعوا الأمل.

ولم يشدُ بعدها.. انقطع شدوه تماماً.

وحين يئست من سماع شدوه ، وضعت القفص قرب شباك غرفتها المفتوح ، وفتحت بابه وغادرت الغرفة. وعندما عادت كان القفص خالياً.

مرت الأيام ثقيلة بطيئة المسير ، واشتاقت إليه وأحسّت بالندم.

همست إحدى اليمامات في أذنها:

إنه يشدو عند أطراف الغابة كل يوم قبل المغيب. توجهت إلى حيث أشارت اليمامة. تبعها حراسها فطلبت منهم أن يتركوها لوحدها ، واستمرت بالمسير ، وبدأت تسمع شدوه ، فأخذ قلبها يخفق.

طيور الغابة كلها والأرانب والسناجب والظباء ، شكلّت نصف دائرة قرب الشجرة التي كان يشدو على غصن من أغصانها.

وقفت خلفهم. رآها فاختلط في شدوه أزيز النار وصفير الرياح وعمق الصدى وصوت المطر ، فالتفت الجميع إليها ، ثم بدأوا بالانسحاب. وبقيا وحيدين ، ينظران إلى بعضهما البعض.

- ألا يكفي ، ألا تعود؟

- لأنال ماذا؟ لتجرحيني ثانيةً ، لتطعنيني من جديد؟

- أتحسبُها طعنةً أنْ أمسكتُ بالمشط؟ سأقصّ جديلتي إنْ كان هذا يرضيك.

- لا تقصيها... أفضِّلُ أن تقصي شريان قلبي ألف مرة على أنْ تقصيها.

وعادا سوية إلى حجرتها ، فأخذ يشدو دون أن تطلب منه.

اقتربتِ منه ووضعتِ رأسها على صدره ، فأحسّت بشهقات قلبه. لم يكن قلبه ينبض إنما كان يشهق.

حلّ ضفيرتها ، وهو يشدو ، وأمسك بالمشط وراح يسرّح شعرها ، وعلى وجهه ابتسامة أندى من ابتسامة أبيه قبل أن يودع الحياة.

* * *

عازف الربابة
(كلمات معطرة برائحة الحقول)

عزف الربابة والدبكة هما وسيلتا التعبير عن البهجة والفرح في الريف العراقي. وهما أكثر وسائل التعبير رسميّةً في أغلب أرياف العراق.

تحمل الربابةُ طابعاً فردياً ، إذ يمكن أن يعزف عليها العازف منزوياً بعيداً ؛ يشكو ألم الفراق أو يُفصح عن شوق المحبين ، شأنه شأن عازف الناي. لكن الدبكة ذات طابع جماعي ، فهي لا تُؤدى إلا أداءً جماعياً. يندر جداً أن يؤدي راقص واحد الدبكة لوحده ، ليس هذا مستحيلاً ، لكنه نادر جداً. إنه حالة شاعرية فريدة ، ينسلخ فيها الإنسان مما حوله ؛ ليعيش حالة وَجْدٍ أو (شهود صوفي) ، حالة تشبه تلك الحالة أو اللحظات الرائعة الساحرة التي مرّ بها (زوربا اليوناني) ، فدفعته إلى الرقص على ساحل البحر ليلاً ، وقد تجرّد من ملابسه كلها ، فبدا مثل أحد المخلوقات البحرية التي تُلِمُّ بالشواطئ من حين إلى حين.

وإن في ذاكرتي حالة مثل هذه بين عدد كبير من حكايات رقصة الدبكة التي جرت أحداث بعضها في قريتنا ؛ والأصح في القرية التي يسكن فيها أقاربي ؛ لأني لم أسكن القرية ، وإن كانت جذوري ما تزال ممتدة في ترابها.

* *

زرتُ يوماً مع عدد من الأخوة صديقاً لنا في قضاء (حديثة). هو واحد من وجهاء القضاء. جلسنا في المضيف الواسع الأنيق ، محاطين بالحفاوة والترحيب وبشاشة الوجوه.

أبرز خصال صديقي سخاؤه وبشاشةُ وجهه ، وهو يستقبلُ الضيوف ، فضلاً عن وسامته وأناقة ملبسه ، هذه الأناقة والعناية بالملبس التي يشترك فيها وإياه أقاربُه جميعا.

لفت نظري واحد من الجالسين في المضيف ، يختلف مظهره عن الحضور. منظره زرٍ وثيابه رثة ، ولكنه شارك أهل الدار في الترحيب بنا.

جلس صديقي إلى جواري ، فسألته عن هذا الرجل فقال مبتسماً:

عابر سبيل.

أدينا صلاة الظهر جماعة ، ولم يؤدِها عابر السبيل معنا.

من التقاليد الجميلة تكرار الترحيب بالضيوف عند تقديم وجبة الطعام ، ولقد كرّر الشيخُ وصفوة أقاربه من (المعازيب) الترحيب بنا ، وهم يضعون (صواني) الطعام الكبيرة أمامنا ، وشاركهم عابرُ

السبيل الترحيب ، وكأنه واحد منهم.

فرغنا من الطعام ، فوُضِعَت الصواني جانباً ، ليأكل (المعازيب) الذين لم يشاركونا الطعام ، ووُضِعَتْ إحداها أمامه مع اهتمامٍ استثنائي وترحيبٍ حارٍ به.

حين بدأنا باحتساء الشاي حدثني صديقي الشيخ محمد عبد الفتاح عن عابر السبيل هذا.

هو غجري يتخذ العزف على الربابة وسيلةً للعيش ، شأنه شأن كثير من الغجر في الزمن الماضي. وكان من عادات هؤلاء الإلمام ببيوت الشيوخ والموسرين طلباً للمعونة بأسلوبٍ رشيقٍ رقيق. وهل يوجد شيء أكثر من عزف الربابة رقة في الأرياف؟

في الليلة التي زارهم ، وبعد العشاء بدأت (التعليلة)

جلسات أسمارهم شيء مميز لا يُنسى. أشعار بدوية وحكايات مليئة بالعِبَر والطرافة. فيهم كثيرون من رواة الشعر بمختلف أنواعه.

سألهم عازف الربابة:

هل تحبون أن تسمعوا شيئاً؟

.... وهل يُعقل أن يكون الجواب (لا)؟

التفت العازف وراءه ، وأمسك بـ(خُرّج) منسوج من الصوف الملون ، وضع فيه الربابة ، مثلما يفعل الموسيقيون ، إذ يحتفظون بآلاتهم الموسيقية في أغلفتها الأنيقة.

بدأ بالعزف واجتهد ، ولم يكن موفقاً. لم تَبْدُ على الحضور أية

استجابة ، ولكنّ لياقتهم منعتهم من إظهار الامتعاض. شكروا له هذه الفعالية الفنية ، مبدين شيئاً من الثناء على عزفه مجاملةً.

اقترب منه شقيق الشيخ ، واسمه خالد وقال هامساً:

شوّقتني للعزف على الربابة. إسمح لي بالعزف على ربابتك ، وسأقتسم وإياك ما يجود عليّ به الحضور مناصفةً.

وحين أحسّ بتردده في القبول ، واصل الكلام قائلاً:

وقد أمنحكَ المكسبَ كلَّه في لحظة أريحية.

... ليس من الحكمة رفض عرض مثل هذا.

بدأ خالد العزف فأجاد ، فألهبَ حماسة الحضور ، فتوالتْ على عابر السبيل الهدايا والمِنَح ، وقد علموا في أثناء الاستراحة بشروط العقد المبرم بين خالد وبينه.

دارت علينا فناجين القهوة العربية بعد الشاي ، فسألني الشيخ محمد مبتسماً:

هل تحبون أن تسمعوا شيئاً من العزف؟

- إنها فرصة لا تُعوّض.

توجّه الشيخ محمد إلى عازف الربابة بالحديث قائلاً:

سمع ضيوفنا الأعزاء عن عزفك الرائع ، وهم يحبون أن يسمعوا منك شيئاً.

تلفّت العازف حواليه ، فقال الشيخ:

خالد مشغول الآن. فيك الكفاية وزيادة.

تناول (الخُرّج) وأخرج الربابة ، وراح يضبط أوتارها ، ثم بدأ العزف.

يتحد عادةً صوتا الربابة والعازف ليخلقا شدواً ، يلوذ به الملتاعون وأهل الهوى ، إما طلباً للسُّلوان وبُرّءِ الجروح ، وإما سعياً إلى المزيد من الجروح ، بعد أن استعذبوا لذة الألم.

تتحرك الأوتار على الأوتار ، فيصدح النغم. أوتارُ القوس تمسّ أوتار الربابة ، فتهمس جنيّات الغناء في آذان المحبين والحالمين أنباءً تهتز لها النفوس.

لم يكن ما سمعناه مسّ أوتار لأوتار ، بل سلاسل معدنية غلاظ صدئة ، تضرب أخرى مثلها ، سلاسل تستلّ من حنجرة العازف أنين رجل كسير في هدأة الليل.

العزف يتوالى ، والعازف يشدو مغمض العينين. سمع خالد الأنين ، فترك شواغله وأسرع لينقذ الحضور من محنتهم.

* *

حكاية عازف الربابة هذا تذكّرني بحكاية عازف آخر ، رواها لي أبي قبل سنين طوال.

ليس غجرياً ، بل هو ريفي ذو مزاج خاص جداً ، ومرهف جداً ، وذو مهارة فائقة.

مهارته وتفوّقه اللذان يحكم بهما كل من يسمعه ، لا يتجليان إلا في حالة واحدة ، هي أن يعزف بحضرة النساء ، أو على مرأى منهن.

يجب أن يكون العنصر النسوي بين الحضور ، بأية نسبة ، حتى لو كانت أقل بكثير من نسبة ٢٥٪ وهذا التساهل في نسبة وجود العنصر النسوي في المحافل ، بحسب رأيي المتواضع هو أسطع دليل على الذوق ورهافة الحس ، والإيمان بأهمية هذا العنصر في إذكاء روح الإبداع في العطاء.

مثل هذا الذوق الخاص الذي أثمر إبداعاً في العطاء حالة مرت بالمطرب الريفي الراحل (داخل حسن).

تحدث في لقاء تلفازي عن حفل أحياه بمناسبة زفاف ابن أحد الإقطاعيين في جنوب العراق.

بعد أن انتهى الحفل وغادر آخر المدعوين بقي أهل الدار وصفوة الأقارب ؛ وفي النفوس توق إلى مزيد من الطرب والانشراح. تم الاتفاق على الانتقال إلى ضفاف الهور ، حيث النسمات أكثر رقة والأجواء أكثر شاعرية.

تحرك الحضور وبصحبتهم لوازم السهرة ، كل اللوازم التي تخطر على البال ، الوطني منها والمستورد.

بدأت آلات الطرب تعزف ، فشدا المطرب الشاب ، فألهب أحاسيس الحضور.

فسحة من الأرض يكتنفها البردي من جهاتها جميعاً ، وهواء عليل ، ومياه ممتدة إلى أبعد المديات ، وليلة مقمرة ، والحظ السعيد ما يزال يواصل العطاء... رؤوس بدأت تتخلل أعواد البردي متطلعةً

بوَجَلٍ وحياء ، متشحةً بالسواد ، لا تظهر منها إلا العيون التي تتطلع إلى مجلس الأنس ، فتألق المطرب الشاب كما لم يتألق يوماً.

اعترف الراحل داخل حسن بأنه أجهد نفسه واجتهد في تلك الليلة التي لا تُنسى إكراماً لعيون المعجبات ؛ اللائي تجشمن عناء السهر حتى الصباح ليسمعن غناءه. وحين (طرّ الفجر).. حين أشرقت الشمس اكتشف أن المعجبات اللائي ألهبن حماسته وأذكين إبداعه كنّ جواميس القرية السارحات في غابات البردي.

حفلة عرس في ريف من الأرياف ، في ضاحية من ضواحي بغداد ، وضواحيها كانت كلها أريافاً. بُسُطٌ منسوجة من الصوف الملون ممدودة على الأرض ، شكّلتِ مستطيلاً. عدد غير قليل من الضيوف في ملابس عربية أنيقة نسبياً ، فالمناسبة تتطلب شيئاً من الأناقة ، حتى في تلك الأيام التي لوّنتِ حياةَ الناس بالبساطة ، وما أجمل ألوانها!

وجومُ عازف الربابة أقرب إلى العبوس ، إذ حال الشباب الذين يدورون حول المجلس بينه وبين حوافز إبداعه ، فقد منعوا قريباتهم الشابات من التجمع ، كما اعتدن واعتادت النسوة في مثل هذه المناسبات ، غيرةً وأنفةً من نظر العازف إليهن.

النفوس تتطلع إلى سماع شيء من العزف الذي قيل في روعته الكثير ، ولابد للعازف من أن يرضي جمهوره ، فبدأ يعزف ، وفوجئ الحضور بعواء ذئب ، ونحيب أرملة ، سمعت بكاء أبنائها

الجياع قبل أن يغلب النعاس أجفانهم.

أدرك الجميع السبب الذي خيّب الآمال المعقودة على سهرة الليلة.

انبرى الشيوخ بسماحتهم ، المنتظرة ممن هم في مثل أعمارهم ، وراحوا يحاولون تخفيف مغالاة الشباب في التزمت.

... ما الذي سيجري؟... (لن يأكلهن) ، دعوهن يَقِفْنَ بعيداً عن المجلس... إنه لن يغني غناءه المعتاد إلا إذا حضرت النساء.

وأذعن الشباب مرغمين ، والنسوة يراقبن ما يجري من وراء أبواب الأكواخ ومن كُواها. وأُذِنَ لهن بالخروج ، فأسرعن فرحات مستبشرات ، ليشكّلن تجمعاً نسوياً على يمين مجلس الرجال ، والشمسُ تنحدر نحو المغيب.

أفاقت روح العازف من سباتها ، وتحفزت شياطينه لتبدأ جولة التطريب.

وهُنّ يُسرِعْنَ متعثرات ، اختلستْ إحداهن النظر إليه. لمحةٌ خاطفةٌ ، ومضةُ برقٍ في ليلِ وجُومِهِ أوقدتْ آلافَ المشاعِل فيه ، فأشرق وجهه بالبِشرٍ وروحُه بالسرور ، فراحَتْ أوتار الرّبابة تعزف كسابق عهدها مرسلةً ألحانَ الهوى متتابعةً دون انقطاع ؛ لتملأ الأديم ، وأنشد:

(دخيـــلْ ربْ العـــرشْ منيبـــوكْ عَينـــو بُـــوكَ

مِسْـــعَدْ وحظـــو حلـــو الضـــاك خـــدو ضـــوك)

أخذ يطلب من رب العرش العظيم ، مستغيثاً أن يمنحه القدرة على مقاومة سحر تلك النظرة الخاطفة ، ممنياً النفس بقبلة يطبعها على خد الحسناء الجميلة التي ألهبتِ أحاسيسه.

غزلٌ صريحٌ ووقاحةٌ لا حدّ لها على مرأى ومسمع من الأقارب الغيارى.

وثار الشيوخُ قبل الشباب ، فخرج عازف الربابة من القرية راكضاً مُطارَداً بعد أن كُسِرَت الربابةُ على رأسه ، وزغاريدُ النسوةِ تملأ الأرجاءَ مُحَيِّيةً غَيرةَ النشامى.

* * *

لأنغام الربابة وصوت الطبل (الدّمّام) وعزف المزمار أثر في نفوس أبناء الأرياف يشبه السحر.

على الخط السريع وقريباً من منطقة (أبو غريب) رتلٌ من السيارات المدنية يسير ببطء متجهاً إلى محافظة الأنبار عصر يوم من أيام الصيف ؛ لأن رتلاً من (الهمرات) الأمريكية يسير في ذلك الإتجاه ، فكان لزاماً على أصحاب المركبات أنْ يخففوا السير ، ويسيروا على يمين الطريق.

توقفت إحدى السيارات بشكل مفاجئ على حافة الطريق وخرج سائقها مسرعاً ، وانحدر راكضاً نحو إحدى القرى القريبة.. حالة استنفرت الجميع ، ما الذي دعاه إلى هذا الركض؟

توقف رتل السيارات عن المسير ، وانتبه الجنود الأمريكان

فاستعدوا للمفاجآت ، ووجّهوا أسلحتهم باتجاه ذلك الرجل. خشي عليه الناس تهور الأمريكان واستهانتهم بالأرواح ، فلحق به عدد منهم وطرحوه أرضاً متسائلين عما جرى له.

قال وهو يلهث:

خمس سنوات لم أسمع فيها صوت (الدمّام) ولم أشاهد دبكة ، ألا تسمعون؟

في القرية حفلة عرس ، وصوت الطبل والمزمار يملآن الأرجاء.

وصفه بعضهم بـ (البطران) والتمس له آخرون الأعذار.

كاد الرجل أن يخسر حياته. إنه ثمنٌ باهضٌ لبطاقة دخول إلى حفل موسيقي.

* *

سبق الغناءُ الريفي الشائع في جنوب العراق غيرَه من فنون الغناء الشعبي في الانتشار ؛ من خلال الإذاعة ثم التلفاز. ثم اتسع الاهتمام بالأنماط الأخرى. وفي الستينات من القرن العشرين بدأنا نشاهد العزف على الربابة ونسمع أغنيات رواد هذا الفن. ومن أشهرهم مطربان لامعان ، كانا يعزفان على الربابة هما:

أبو جيشي مطلك الفرحان وملا ضيف الجبوري ، كذلك اشتهر مطرب ثالث هو جبار عكار ، ولكنه كان أقل براعة وتعبيراً عن روح الفن الأصيل.

مرض أبي مرضاً شديداً ألزمه الفراش. طال مرضه ، فكبرت

المخاوفُ ، وصار احتمالُ الوداع الأخير وارداً.

جلس عمي مشعل عند رأسه واجماً ، وقربه عمتي زهرة ، الصغرى بين إخوتها وأخواتها اللائي توفين منذ سنين طوال. لم تكف عن البكاء ، وهي تنظر إلى أخيها الذي تولى تربيتها والاهتمام بها بعد وفاة والديها. هي أخته لأبيه من آخر زوجاته الثلاث. توفيت أمها وهي لمّا تزل طفلة بعد ، فتولى أبي العناية بها ؛ لأنه عرف مرارة فَقْد الأم. وكان قد لقي من زوجة أبيه الثانية عناية فائقة واهتماماً جعلاه يترحّم عليها حتى آخر أيامه. ولعل اهتمامه بأخته الصغيرة لون من ألوان رد الجميل لتلك السيدة الكريمة التي أسبغت عليه حنانها ، ورسالة إليها يخبرها فيها أن بذور الطيبة التي بذرتها في ذاته قد أنبتتْ طيبة وحناناً ومروءة.

من حين لآخر تضع يدها على جبهته ، أو تمسك يده وتقبِّلها. وأمي جالسة عند قدميه تدلكهما حيناً ، وتغطيهما حيناً آخر دامعة العينين.

التلفاز يبث برامجه ، ولكنْ لا أحد يلتفت إليه ، إذ الكلُّ منشغلٌ بالنظر إلى العزيز الذي يكاد يمسي فقيداً ، وأبي مسجى على فراشه شاحبَ الوجه ، ويداه ممدودتان إلى جانبيه ، وفجأة اتسعتْ عيناه- الواسعتان أصلاً- ، ثم أنطبقتْ أجفانُهما. عضّ شفتَه السُّفلى ، وراح يهزّ رأسَه يمنة ويسرة ، مغمضَ العينين ، كأنه يعاني ألماً ممضاً. انتفض عمي مشعل ، وهو ينتخي قائلاً:

(أنا أخو صالح... ها!)

وصاحت عمتي زهرة (داده صالح... خَيِّي!)

وأجفلت أمي واقفة. وكنت أقلهم صبراً فرحت أبكي.

حرك أبي يده اليمنى ودسّها تحت الوسادة باحثاً عن شيء ما ، فأسرعتِ أمي لتناوله كيس الدواء ، وهو ما يزال يبحث. أشار إليّ بيده اليسرى أن (أرفع) صوت التلفاز.. التفتنا صوب الشاشة فرأينا صورة عازف ربابة يغني.. مغن هو ليس واحداً من الثلاثة الذين اعتدنا مشاهدتهم.

أخرج يده من تحت الوسادة. لقد وجد ما كان يبحث عنه... مسدسه (الوبلي). اعتدل في فراشه ، وهو ما يزال يعضّ شفته السفلى ويهز رأسه يمنة ويسرة.. واستخفّه الطرب ، فرفع يده وهي ممسكة بقبضة المسدس وأطلق ثلاث إطلاقات متتالية ، وهو يقول: (عاش القارى)!!

قال عمي مشعل ضاحكاً:

(ملعون الوالدين! أثاري كلشي ما بيك!)

واكتفت عمتي زهرة بالنظر إلى أمي ضاحكة.

باع أبي بيتنا القديم ، وأثرُ الإطلاقات ما يزال في سقف حجرته ، شاهداً على نمط من أنماط التذوق للفن.

ليس اهتزازُ أبي وطربُه ، وهو يسمع عازف الربابة ذاك حدثاً مفاجئاً يثير الاستغراب ، إذ عُرِف عنه الاستعدادُ التامُ للاستجابة

لمثيرات الطرب. ولقد كان لاعبَ دبكةٍ ماهراً جداً ، اتخذ الدبكةَ وسيلةً للتعبير عن عنفوان الفتوة وزهوِ الشباب ، وجعلها إعلاناً موجَّهاً إلى الحسان ، أهم محفزات إبداعه ومصدر إلهامه الفياض ، إعلاناً ينبيء عن طاقة الجسد ورهافة الروح ، وبها ، ومن خلالها ضمن رواج سلعته في سوق الهوى.

اعتاد أن يتصدر مجموعة اللاعبين ، فيكون قطب الرحى ، وعلى وفق حركاته وتوجيهاته يتحرك الآخرون ، لاعبين وعازفين.

يقال في لاعب الدبكة الذي يضطلع بمثل هذا الدور (فلان يلزم الراس) ويليه في الأهمية اللاعب الثاني الذي يلعب دور الرديف.

واعتاد أبي أن يستأثر بهذا المركز ثقة بقدراته ومهارته.

لم تخل مسيرته في طريق الزعامة ذاك من المنغصات ، فدفع ثمن تشبثه بمركز الصدارة باهظاً ، رافقه الإحساسُ بفداحته حتى آخر أيامه.

نافسه في أيام الشباب منافسٌ طموح عنيد ، أراد أن ينتزع منه مركز الصدارة ، فخاضا صراعاً شرساً عنيفاً ، مثل الأيائل ، وهي تقاتل بعضها البعض للفوز بموقع الصدارة في القطيع.

انتهت المعركة بدخول المنافس المستشفى وأبي (التوقيف) ، فازداد إعجاب الظباء بالأيّل الهمام ، الذي خفق قلبه بشدة لواحدة منهن ، فقرر الاقتران بها ، وتسليمها مفتاح قلبه بقناعة تامة وتصميم لا رجعة فيه.

هي فتاة كريمة الأصل ، نصف قروية ، اسمها (خيرية السلمان). أحبته حباً هادئاً رصيناً. لم تندفع في حبه ، ولم تتوانَ عنه. أبقتْ باب الأمل مشرعاً ، وجعلتْ الأيل العاشق على يقين من أنه هو فتاها ، ولا أحد سواه.

تقدم لخطوبتها ورُفِضَ طلبُه ، لأن ابن عمها (نهى) عليها.

فوجيء أبي بأن ابن العم الناهي هو المنافس العنيد ، الذي نازله في معركة الأمس القريب.

ثلاثُ زيجاتٍ لم تُفلحْ في محو صورتها من وجدانه. لم تفتر حماسته للدبكة ، ولكنه ظل يبحث دائماً عن الوجه الحبيب بين وجوه المتفرجات.

فاجأني شخص ذو أريحية ، جمعتني وإياه علاقة جيدة على الرغم من حداثة عهدها بالقول:

كان يمكن أن تكون أمك ضُرةً لعمتي ، أو أن تكون عمتي ضُرَّةً لأمك.

فقلت:

كثيراتٌ رُشِّحْنَ لهذا المنصب.

- كانت عمتي أوفرهن حظاً.
- لعلها خيرية السلمان؟
- أنت تعرف القصة إذن؟
- وأتطلع إلى المزيد.

وتذكرتُ أنّ اسم جده (سلمان).

حدثني عن زواجها وعن أولادها النجباء. وكانوا نجباء حقاً ، وجدتُ فيهم حين التقيتُهم خصالاً طيبة كثيرة. كما حدثني ، وهو يضحك عن زوجها الذي كان لا يطيق سماع اسم أبي ، إذ يستفزّه أي شيء يوصف بالصالح ، حتى لو كان المُتَحَدَّثُ عنه (مَلكاً صالحاً).

* *

أبي وأعمامي هم أول من سكن من أهل قريتنا المدينة ، لذا صار بيتنا محطة استراحة لأغلب الأقارب عند زيارتهم المدينة ، وذلك لأسباب أهمها سماحة أبي وحسن ضيافته – ولا فخر-. وهذا لا يزري بأعمامي ، فأحدهم ، وهو عمي علي رحمه الله ما تزال سماحته مضرب المثل إلى الآن ، ولكنّ بساطة مورده المالي حالت دون استقباله أعداداً مثل التي كانت تزورنا من الضيوف.

كنت الأصغر بين إخوتي ، قبل أن يولد أخي محمد ، ولهذا ، ولطاعتي التامة لأبي توليت مهام خدمة الضيوف وتلبية احتياجاتهم ، وصرت أمضي أوقاتاً طويلة قربهم ، فسمعت كثيراً من حكاياتهم التي كانوا يزجون بروايتها السهرات.

أحبُّ أقربائنا إلى نفسي واحد من أشهر رجال العشيرة وأكثرهم وجاهة وصيتاً ، وهو الحاج عبد الله الصالح الحمد ، الذي عُرِف بين العشائر القريبة من سكن عشيرتنا ، وبين قبائل البادية باسمه الأول ،

منسوباً إلى اسم العشيرة. ولقد سمعتهُ يوماً يقول:

صار اسم العشيرة أباً لي.

سكن القرية في آخر أيامه ، حين أسنّ وشاخ وصارت به حاجة إلى الرعاية ، إذ لم يخلف عقباً ، فتولى أبناء إخوته خدمته ورعايته ، بشكل أكسبهم الثناء. ولاشك في أن البركة التي أحاطت بهم هي واحدة من عطايا الله سبحانه وحسن جزائه لموقفهم ذاك. عاش أغلب أيام حياته في البادية الشمالية الممتدة من محافظة صلاح الدين إلى محافظة الموصل ، والتي تسمى بالجزيرة ، وكان ذلك في الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي ، وهو عصر شبابه وزهوه... نعم زهوه ، فهو بهي الطلعة ، ساحر الهيئة.. طول فارع وبنيان متين ، ووضاءة ، ووسامة تشد الأنظار. ولقد تمنى أحد شيوخ العشائر المعروفين ، على مسمع من أقاربه ، وهو ينظر إليه راكباً فرسه ، تمنى أن يكون عبد الله الصالح واحداً من أبناء عشيرته ، فاستنكر أخوه أمنيته قائلاً وهو يضحك:

لا حقّق الله لك هذه الأمنية ، ستفتن به النساء!

تحدث أبي يوماً عن وسامته وهيئته قائلاً إن ثلاثة من الرجال المعروفين في الجزيرة بلغوا درجة عالية من الشبه ، وهم الحاج عبد الله الصالح وشيخ مشايخ قبيلة شمر الشيخ عجيل الياور والشيخ غازي العلي الكريّم ، وهو شيخ عشيرة معروفة تقطن قرب سامراء. رحمهم الله جميعاً!

وكان حقاً ما قاله أبي ، إذ إني أتذكر بهاء الشيخ غازي العلي ، الذي تجمعنا وإياه علاقة طيبة ، كما إني أحتفظ بصور عِدّة للشيخ عجيل الياور ، جمعتُها من مصادر تناولتْ تاريخ العراق الحديث ، أو درستْ حياة العشائر العراقية.

تناهتْ إلى الشيخ الياور أخبار الحاج عبد الله ومكارمه وسخائه. ولقد استنجدتْ نسوة من عشيرة شمرية بالحاج عبد الله سائلاتٍ العونَ في سَداد ضريبة فرضتها الحكومة على ممتلكات العشيرة من قطعان الإبل ؛ وتسمى هذه الضريبة بـ(الكَودة) ، وكان مقدارها عالياً ، فقدّمها إليهنّ بطيبة خاطر.

تناقلتْ مجالس قبيلة شمر باعتزاز مبادرة الحاج عبد الله ، فاستضافه الشيخ عجيل في مضارب القبيلة واستقبله بحفاوة تليق بكليهما. وفي أثناء الحديث سأله الشيخ عن عدد رجاله ، ففاجأه الحاج عبد الله حين أخبره أن لا أحد معه سوى عدد من الرعاة ، وابن أخيه المدعو ناجي المطلك ، وكان صبياً يافعاً ، قُتل أبوه مطلك الصالح في معركة خاضها ضد رجال من عشيرة شمرية. وإعجاباً من الشيخ عجيل به أسبغ عليه رعاية خاصة ، ومنحه عهد الأمان في التجوال بقطيع إبله وقطعان أغنامه في الجزيرة آمناً من الغزو ، الذي كان نشاطاً حربياً تفخر به القبائل ، وتمارسه بوصفه رياضة روحية ، أكثر منه مورداً اقتصادياً.

ولقد نصحه الشيخ عجيل نصيحتين ، الأولى هي أن يستبدل

بقطعانه أرضاً ، قائلاً بتعبير بسيط ، غني بالحكمة والدلالة:
(إن كل مال يمر من تحته الهواء سيذهب مع الهواء) والنصيحة الأخرى هي ألاّ يتساهل كثيراً في إقراض الناس أمواله ، لأن أحاديث كثيرة تتردد حول ثقته الكبيرة بالآخرين ، وعدم رده أيَّ شخص يسأله إقراضه المال. ولقد غُبنَ الحاج عبد الله كثيراً بسبب طيبته وثقته ، إذ تناسى عدد من مدينيه ما بذمتهم ، وطوى الزمن صفحات كثيرة من سجل ديونه.

زاره قبيل وفاته رجل غريب ، متوسط العمر ، وأراد أن يسلمه مبلغاً قدره مائة دينار ؛ هي دَيّن للحاج عبد الله بذمة والد ذلك الرجل ، وقد توفي منذ زمن ، ورجا الحاج أن يبريء ذمة والده.

استدان الرجلُ المتوفى المبلغ منذ زمن بعيد ، وانقطع عن رؤيته ، فلم يسدد ما بذمته.

سأله الحاج عبد الله:

هل يمكن أن تشتري ذبيحة بهذا المبلغ؟

أطرق الرجل حياءً ، إذ انخفضتِ القدرة الشرائية للدينار كثيراً عما كانت عليه حين التسليف.

ولما سكت الرجل ، ولم يستطع الإجابة ، قال له الحاج:

لقد أبريتُ ذمة والدك المرحوم ، والله يشهد. اشترِ (ذبيحة) بهذا المبلغ ، واذبحها عن روحه وأطعِمْ منها عيالك ، ولا تنسني بالدعاء.

أفاد الحاج عبد الله من نصيحة الشيخ عجيل الياور وحكمته ،

فباع عدداً من قطعان أغنامه ، واشترى أراضي زراعية في القرية.

عُرف الشيخ عجيل الياور بالحكمة والفطنة والذكاء الحاد. وعندما زار مصر كتب أحد الصحفيين بعد لقائه إياه: (الآن ، وبعد أن التقيتُ الشيخ عجيل الياور آمنتُ بأن النبيّ محمداً صلى الله عليه وسلم كان أمياً).

كان الشيخ أمياً ، لا يعرف القراءة والكتابة ، ولكنّ فطنته صارت سبباً في إنهاء خلاف بين حكومة العراق والمملكة العربية السعودية ، سببه طلبُ المملكةِ من حكومة العراق تسليم مواطن سعودي الجنسية ، شمريّ النسب ، التجأ إلى العراق وحلّ ضيفاً على الشيخ عجيل ، وهو المرحوم الشيخ عكَاب ابن عجل ، الزعيم الشمري ذائع الصيت.

استندت المملكة في مطالبتها بالشيخ عكاب إلى اتفاقية بينها وبين حكومة العراق تنص على تسليم الهاربين.

كادت حكومة العراق أن تذعن ، بعد أن صوّت مجلس النواب بالأغلبية بالموافقة على تسليم الشيخ عكاب إلى المملكة.

انبرى الشيخ عجيل ليكلم أعضاء المجلس ، مشيراً إلى عدم اعتراضه على قرارهم ، راجياً إياهم القيام بخطوة واحدة قبل تسليم الشيخ اللاجئ ، وهي الكتابة إلى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وإخباره بأن (عجيل الياور) يسأله السؤال الآتي:

لو كان (عكاب ابن عجل) مواطناً عراقياً والتجأ إليه ، هل

سيسلمه إذا طالبت حكومة العراق به؟

نفّذَ طلب الشيخ عجيل ، ولم تتلقَ الحكومة رداً من المملكة. وانتهت الأزمة ببقاء الشيخ عكاب في العراق حتى وفاته.

يدرك الشيخ عجيل جيداً أن الملك عبد العزيز لن يُسلم لاجئاً إليه إلى المطالبين به ، مهما بلغت قوتهم. وهذا ما حدث فعلاً حين لجأ إليه المرحوم رشيد عالي الكيلاني عقب فشل ثورة مايس عام ١٩٤١ ، على الرغم من تدخل الإنكليز ، وتأييدهم مطالبة الحكومة العراقية به.

تذكّرني واحدة من قصائد الفرزدق ، قالها يصف فيها لقاءً جمعة بذئب ، اقترب من رحاله ليلاً في سفرة من سفراته في البادية ، تذكّرني هذه القصيدة بحكاية من حكايات الحاج عبد الله الصالح الممتعة ، ذات النكهة التي أمدّتها بها أعشاب البادية وأشجارها ذكية العطر.. الشيح والگيصوم والزِّباد والقرنفل.

في ليلة مقمرة ، وهو راقد قرب ناقته الجاثمة اقترب منه ذئب ، والذئب جائع دائماً ، حتى ضُرِبَ به المثل في الجوع ، فمن تشبيهات البادية الشائعة (فلان جوعان جوع الذيب).

ذئبٌ جائعٌ ومسافرٌ وحيد وليلٌ ممتد فوق البادية ، شخوصٌ وزمانٌ ومكانٌ توحي جميعاً بهجومٍ شرسٍ وصراع قد يكون طويلاً في أكثر الاحتمالات تفاؤلاً ، وميتةٍ محتملة.

اعتدل الحاج في مجلسه ، بعد أن فرّ النوم من عينيه ، وراح

يرحب بالذئب ، مثلما اعتاد أن يرحب بضيوفه: (يا الله حيّو! ... يا الله حيّو!... يا الله حيّ أبو سرحان!... أهلاً وسهلاً! زرتني والأهل بعيدون ، تشاركني هذه الليلة زادي ، وغداً سيكون غداءَك أفضل كبش في القطيع).

أجفلت الناقة ، وحاولت النهوض ، ولكنّ قدميها الأماميتين مربوطتان ، فبقيتْ في مكانها قلقة. ظلا ينظران إلى بعضهما البعض بحذر وتوجس. تفصل بينهما مسافة قدرها أمتار. عينا الذئب ملتهبتان ، يغذّي جوعُه لهيبَهما ، وعينا الحاج مسمرتان على عيني الذئب ، يملؤهما الترقب والحذر ، وهو يواصل حديثه إلى الذئب ، مثلما يحادث رفيق سفر أو سمير سهرة. حدّثه عن وحشة الليل في البادية ، والفرح المُطَمْئِنُ بلقاء رفيق أنيس ، وحلاوة الإخاء والأمان. أحاديث سبق للفرزدق أن تلاها على مسامع رفيق ليلته البعيدة الخالدة. حديثه يتواصل ، ويده لا تفارق مقبض سيفه.

شعر الذئب أن أمامه ابنَ ليل ، يدرك جيداً قواعد اللعبة ، التي تجسّدها مفردتان هما الحذر ورباطة الجأش ، فأطلق عواءً طويلاً ، وهو مُقْعٍ تصاعد الحذر والتوجس في صدر الحاج عبد الله ، ومرت دقائق يثقلها القلق والخوف من سماع عواء يرد على عواء صاحبه ، ملبياً النداء... ذئب آخر يبحث عن طعام ليلته ، فعقد العزم على الرحيل. يسراه ممسكة بالسيف ، وهو في غمده ، وبيمناه فك رباط ساق الناقة الأمامية اليسرى ؛ واعتلى ظهرها ، ثم فك رباط ساقها

اليمنى ، فنهضت مثل سفينة ترفعها الأمواج ، وهو على ظهرها شامخاً شموخ جبل يلفّه الظلام.

ابتعد الذئب قليلاً ، وراح يرافق مسيرة الحاج ، الذي شرع بالحداء ، ليطمئن الناقة ويزيح عن صدره ركام التوجس ، ويوحي للذئب أنه قادر على هتك أستار الظلام بصوت أكثر أنساً ورقة من عوائه.

أنِسَتْ نفس الحاج برؤية طلائع الفجر ، وازداد طمأنينة كلما بدأ بالاقتراب من البئر ، التي بقيت لزمن طويل تحمل اسمه ، حيث خيمته الكبيرة وخيام الرعاة ، والذئب ما يزال يرافقه ، وأمله في الوجبة المنتظرة يتلاشى شيئاً فشيئاً. ولاحت الخيمة من بعيد ، تلفّها أستار الظلام المنسحب ، وطلائع الفجر الآتي ، تحمل بشائر النجاة ، فأطلق الذئب عواءً طويلاً ، ردت عليه كلاب الرعاة بنباح أطول ، واستدار ليعود أدراجه منكس الرأس ؛ فقال له الحاج:

دعوتي لك ما تزال قائمة ، فهلّا تفضلت معي!

ولكنّ الذئب ابتعد بخُطا متثاقلة ، وهو منكّس الرأس. ونحن مبهورون بما نسمع ، وأنظارنا لا تفارق وجهه الوضاء.

دُعِيَ الحاج عبد الله ، كما دُعِيَ الأقارب إلى حفل زواج رجب ابن عمي علي. رقص الشباب الدبكة ، وأصروا على أن يتصدرهم أبي ، الذي كانوا يعرفون جيداً قدراته ، فاستجاب بلا تردد. ولم تكن به حاجة إلى دعوة ، فهو لا يطيق صبراً على سماع الطبل

والمزمار. وأظهر براعة تليق باسمه وتأريخه ، وقد اقترب حينها من الستين ، وكان الحاج عبد الله يكبره بما يقرب من خمسة عشر عاماً.

أثار أبي الإعجاب. عبّر الرجال عن إعجابهم بإطلاق العيارات النارية في الهواء ، بينما عبّرت النسوة عن إعجابهن بإطلاق الزغاريد ، التي كانتِ أكثر أثراً في تألقه.

بين حين وآخر يبتعد عن حلقة الراقصين المتماسكة ، ليلتحق بهم في خطوات طويلة ترافق ضربات الطبل.

كان يرقص حالماً ، مغمض العينين ، مثل صقر أفرد جناحيه في السماء ليدور دورات منتظمة ، وقد استسلم لتيارات الهواء الصاعدة.

وعرفت سر إبداعه.. إنه تلك الأرملة الحسناء التي ترتدي ثوباً من (الأوركنزا) الفستقي وتغطي رأسها (بفوطة) بيضاء ، والتي كنت أرى خدّيه يتوهجان كلما حادثها.

انتهى الحفل ليلاً وغادر المدعوون ، وتوزع الأقارب بين دارنا ودور أعمامي للمبيت. بات الحاج عبد الله وعدد من الأقارب ليلتهم تلك في دارنا.

أعجبَ الحاج بأداء أبي ، وراح يعيد الثناء في أثناء السَهرة. وتداعت الذكريات عن البهجة التي تشيعها الدبكة في النفوس ، وحلم الراقص الحساس ، وهو يؤديها. سيل من الأحاديث ، يُنبيء أن الدبكة عند لاعبيها هي شيء أقرب إلى الطقوس منه إلى اللهو.

في صباه ، وعمره خمسة عشر عاماً ، اعتاد أن يقود قطيع

أغنامهم الكبير إلى المراعي فجراً ، حاملاً عصاه وصرة صغيرة وَضَعَتْ أمه فيها شيئاً من الطعام ، ومزماراً.

صباحٌ ربيعيّ ، يثير في النفوس حُبَّ الحياة والانطلاق. دفء الشمس ونسماتُ الهواء الرائقة ، والسُّحُب البيضاء الخفيفةُ المتناثرة في السماء جعلته يشدو:

(لعبوا بحالي لعب الهوا بالغيم)

وراح يعزف بالمزمار ، ثم أخذ يرقص الدبكة وحيداً حالماً ، لا يفكر في نهاية الحلم ولا يستعجلها.

أربعُ جدائل كستنائية تتدلى على كتفيه ، اثنتان على كل كتف ، لتصل إلى قرب خاصرتيه.

سَحَرَه ظل الجدائل المرسوم على الأرض ، وهي تتراقص صعوداً ونزولاً كلما قفز ، فأكثر من القفز ، سعيداً مأخوذاً بالظلال الأنيسة.

وعلى الرغم منه انتهى الحلم بضجيج وصياح وثغاء. صياح الرعاة القريبين ، وهم ينبهونه ليصدّ الذئب الذي هاجم قطيعه ، وثغاء النعاج ، وهي تفرّ هاربة أمام هجمة الذئب. تداعى الرجال وأخذوا يطاردون الذئب ، محاولين تخليص الشاة التي اقتادها. ولم يشترك صالح الحمد في تلك المطاردة ، إنما أخذ يطارد ولده عبد الله ، الراقص الحالم.

أمسك به وصرعه أرضاً ، وجثم على صدره ، وهو يقول بغضب:

طالما حذرتك ، ستصيبك هذه الجدائل يوماً بالجنون!

وراح يقص جدائله بـ(الزَّو) ، وهو المقص الذي يقص به صوف الغنم.

توفي الحاج عبد الله الصالح منذ زمن بعيد ، ولكنّ ذكراه العطرة ما تزال تتردد في مجالس العشيرة محاطة باعتزاز كبير.

* *

كلما ذُكرت الدبكةُ في مجالس قريتنا ذُكرَ اسم المرحوم حمادي التركي. هو من أسرة الحاج عبد الله الكبيرة ، وممن تولوا رعايته حين أسنّ. وأتذكّر جيداً أنه كان يغسل قدمَي الحاج عبد الله بنفسه ، ولم يكلف بذاك أحداً من أولاده. أبرز مزاياه طيبته غير المحدودة ، وروحه الفكهة ، ونشاطه الدائب.

أسمر ، شديد السمرة ، رَبَعَة ، متين البنيان ، كثّ اللحية. تُسهم سمرته الشديدة في الكشف عن نصاعة أسنانه. تذكّرني صورته بشخوصٍ كنا نراهم في الأفلام المصرية القديمة ، التي تروي قصصاً عن عرب الجاهلية ، مثل أفلام عنترة بن شداد ، والأفلام التي تروي قصة نزول الرسالة الإسلامية.

ملابسه بسيطة ، مكشوف الصدر دائماً ، تزيّن صدرَه لِبدةٌ سوداءُ مثلُ لبدة أسد.

يضطلع عادة بواجبات الضيافة وإعداد الولائم في المناسبات والأعياد ، ويبلغ نشاطه الذروة حين تبدأ فعاليات الدبكة ؛ فتتجلى

روحه الحقيقية ، الحالمة الشفافة ، المطمورة تحت مظهره البسيط ولبدةِ الأسد.

يستجيب جسدُه برفق لضربات الطبل وصوت المزمار ، فيبدأ بالاهتزاز الخفيف ، ومع كل هزّةٍ يأخذ الثوب البالي بالانحسار شيئاً فشيئاً ، والانحدار من الكتفين. ويأخذ شعر اللبدة بالتساقط كما ينسلُ صقر قطبي ريشه القاتمَ ، فيتطاير بتأثير رياح أيلول الباردة ، ليظهر تحته ريش ناصع البياض ، فيبدو فتىً ساحرُ الطلعةِ ، يُشبه أنصافَ الآلهة النازلين من جبل الأولمبياد ، ليشاركوا جنيِّات الحبّ رقصات الفرح في موسم قطف العنب.

ولم تكن العيون كلها ترى حقيقة ما يطرأ على حمادي التركي من تغيير عند سماع الطبل والمزمار. العيون ترى حمادي الضاحكَ ، والمضيفَ ذا الهمة ، ذا الصدرِ المكشوفِ واللبدةِ السوداء ، ولاعبَ الدبكة المرح. إن العيون مشغولة عن التدقيق فيه بالنظر إلى اللاعبين الآخرين ذوي الوسامة.. أخيه حامد وشيخ العشيرة الشاب الوسيم علي الصالح العناد ، وابن خاله إبراهيم المحمود ، الذي أُطلق عليه لقب (الرديني) نسبة إلى الرمح الرديني.

لم يُتَحْ له يوماً أن(يلزم الراس). لم يحتلّ يوماً مركز الصدارة في الدبكة. لطالما أشاع الابتسامات وأذكى أجواء المرح ، ولكنّه لم يُثر الإعجاب في أثناء الدبكة يوماً..ماأشدّ ما به من حاجة إلى إثارة الإعجاب وسماع أصوات الرصاص وزغاريدالحسان وهو يؤدي الدبكة!

لازمت الوحدةُ نصفَ الإلهِ ساحرَ الطلعة ، النازلَ من جبل الأولمبياد إلى حقول العنب الكائنة في سفوحه ؛ لأن عدد جنّيات الحب الراقصات كان أقلَّ دائماً من عدد أنصاف الآلهة ، فظل يشكو الوحدة ، وراح يطلق الابتهالات الضارعة ، ولكنه ظلّ مثلما يعهده الجميع.. يشيع أجواء المرح والفكاهة ، ويؤدي واجبات الضيافة في المناسبات بهمة عالية.

لم تكن كل العيون ترى حقيقة ما يطرأ على حمادي التركي من تغيير حين يسمع الطبل والمزمار ؛ إلاّ أعيناً قليلة ، منها عينان خضراوان ، هما عينا (تاضي).. قريبته الشقراء الجميلة ، التي رأت فيه نصف الإله الذي ينحدر من الأولمبياد ، والصوفي الذي يُسلم روحه وجسده إلى أنغام الموسيقى في حلقة الذاكرين.

وصارتِ جِنّيةَ حبه ، فشاركته قطاف العنب ، واعتصرته له ، وأسكرته من كؤوس عصيره.

ورُزق منها أولادَه النجباء علياً وكامل وياسين وحامد وطه وأحمد وفرحان وسعدون وخلدون. فتية نجباء طيبون ، أخذوا من طيبته ودماثته الشيء الكثير. وكانوا نصفين ، نصفاً يشبهه ونصفاً يشبه أمهم ، ولكنهم جميعاً من أهل النجابة والدماثة.

برّوا أباهم مثلما بَرَّ هو أهله ، فتغيرت حاله ، وعرف لين العيش بعد شظف. لبس حمادي التركي العباءة (الچوخ) وستر لبدة الأسد بالثياب الفاخرة. ونعموا جميعاً ببركات الله وصفاء البال.

منذ صغرهم أخذ أبوهم يعلمهم أصول الدبكة. عصر كل يوم يرشّ الساحة الكائنة أمام كوخه ، ويفرش بساطاً ليجلس عليه ، وقد هيأ (النارجيلة) وأمامه بندقيته (الجيشية) ، ويطلب من أولاده الصبية أن يبدأوا الدبكة ، فتأخذ أمهم بالضرب على علبة من الصفيح بدلاً من الطبل ، وهو يلقي إليهم بالتوجيهات والوصايا ، ويطلق العيارات النارية في الهواء حين يجيدون الأداء.

واكتشف أن من يصلح من أبنائه لأداء الدبكة والإبداع فيها ثلاثة هم: حامد وطه وفرحان. وهذا ما حدث فعلاً ، فهم أبرع من يؤدي الدبكة الآن.

وجاراهم في البراعة والإبداع عبد الرحمن ابن شيخ العشيرة الشيخ علي الصالح العناد ، وقد توفي وهو في ريعان شبابه رحمه الله ، وعلي إبراهيم المحمود ، وهو مثل أبيه.. رمح رديني وصبري ابن أخ شيخ العشيرة ، وهو يضطلع الآن بمهمام المشيخة ، لأن أحكام العمر وصروف الدهر قد نالت نصيبها من الشيخ ، خفّف الله عنه العناء!

ومثلما حرص حمادي التركي على تلقين أولاده أصول الدبكة أبدى عناية فائقة بمواصلتهم الدراسة ، على الرغم من فقره ، فواصلوا الدراسة بهمة عالية فتفوقوا ، وشقوا طريقهم في الحياة بنجاح مشرّف ، وصاروا لأبيهم قرة عين ، لهم مكانة في العشيرة وحضور في مجالسها ، مثلما لهم الصدارة في مناسباتها.

تجمعني بأبناء المرحوم حمادي التركي مودة راسخة وذكريات جميلة رائعة.

أنا وعلي وكامل من جيل واحد. يمتاز كل منهما بأنه ينتمي إلى عالم يكاد يكون غير عالمنا ، براءةً وطيبةً وسمواً ونبلاً. طيبةٌ لا تحدها حدود ، ونقاء نادر المثال ، يشبه نقاء لؤلؤة تغفو في حضن محارة.

أماعلي فكل ما فيه ينبيء أنه أقرب ما يكون إلى مخلوقات السماء الرائعة. يمكن أن تصوّر شخصيته هاتان المفردتان.. (أخلاق الأنبياء).

لم أرَ مثيلاً له براءةً ونقاءً. صاحَبْتُه مدة طويلة فلم أجد فيه إلا ما يزيدني حباً له واعتزازاً به.

سافرنا سوية إلى المحافظات الشمالية لإنجاز أعمال خاصة بنا. حلَلْنا في مدينة كركوك ، وقد أرهقنا السفر. دخلنا حماماً شعبياً قديماً ، الأجواء فيه ساحرة ، تفوح بعبق الماضي ، فتذكرتُ ما قرأتهُ عن بغداد زمن الدولة العباسية ، ورحتُ أجهر بخواطري لعلي ، وهو ينزع ملابسه ، وأخذتِ الكلمات تتباطأ في فمي. وحين دخلنا قاعة الاغتسال المرتفعة الحرارة ، المليئة بالبخار ، توقفتُ عن الكلام ، وأنا أنظر إليه مذهولاً. سألني:

هل اختنقت؟

هزرت رأسي نفياً ، فعاد يسأل:

ماذا إذن؟

- ما هذا الذي أرى؟

رأس علي حمادي ، وهو يُطِّلُ عَلَيَّ من وراء ستار سميك من الشعر الأسود ، مثل رأس فارس من فرسان العصور الوسطى ، يرتدي درعاً حديدية صدئةً ، تغطي جسده كله.

جلسنا متقابِلَيْن على المنصة الصخرية الساخنة لنتعرّق. قلت:

أنت تذكّرني بـ (أنكيدو).

- من هو؟

ورحت أقصّ عليه شيئاً من ملحمة كلكامش ، وكيف خلقت الآلهة أنكيدو ، ولِمَ خلقَتْه. ولم أقلْ (على هيئة ثور) ، إنما قلتُ (على هيئة أسد). إنسان متوحش يعيش في البراري ، مثلَ وحوشها شكلاً وسلوكاً.

ضحك ثم قال:

لو رأيتَ أبي في الحمام لقلتَ إنه (أنكدُ) من أنكيدو.

ورحتُ أمعِنُ النظر فيه مجدداً ، فسألني مبتسماً مستزيداً:

أتريد أن تقول شيئاً آخر؟

- تصوَّرْ يا أبا زيدون لو أن عفريتاً من الجن ، مثل ذلك العفريت الذي نقل عرش الملكة بلقيس من مملكتها ، ووضعه أمام سيدنا سليمان في غمضة عين ينتبه عليك ، فتثور في نفسه رغبة في إحداث طُرفة تتناقلها وكالات الأنباء العالمية ؛ فينقلك الآن ، وأنتَ

بهذه الهيئة ليلقي بكَ في حوض سباحة في باريس. هل تتصور ما الذي سيحدث؟!

سألني ، وهو يضحك:

ما الذي سيحدث؟

أسراب من حسان باريس الشقراوات يتقلّبن في مياه الحوض الصافية مثل الحوريات ؛ وإلى جانبهن فتية لا يقلّون عنهن إشراقاً ووسامة ، يباغتهم مخلوق مخيف ، أسمر كثيف الشعر ، يسقط من السماء بينهم فجأة. يتعالى رشاش الرذاذ ، وتتعالى الصرخات ، فيأخذ الجميع بمغادرة الحوض مسرعين مذعورين. ويظهر رأس المخلوق من تحت الماء ، عينان حمراوان واسعتان ، ووجه أسمر يعلوه الذهول ، وحيرة عظيمة تتملكه ، جعلته يتلفّت يمنة ويسرة ، فيزداد صراخ الحسناوات وتزاحمهن عند السلالم.

ركضت أولى الناجيات إلى موظفي المسبح ، وهي تشير إلى الحوض مذعورة.

كاد الحوض أن يفرغ من السابحين ، وفجأة أفلتتْ يد إحدى السابحات من السلّم ، فسقطت في الماء ثانية. أسرع اثنان من الشبان بالقفز إلى الحوض. وقف واحد منهما في مواجهة المخلوق ، وإنْ كان بعيداً عنه نسبياً ، وتولى الآخر مساعدة الفتاة على الخروج من الماء. والدهشة ما تزال تعقد لسان المخلوق المخيف.

صار الجميع خارج الحوض إلا المخلوق. وبسرعة أقاموا متراساً ،

مستفيدين من المناضد والكراسي القريبة. جرت اتصالات ، وسرعان ما حضرت فرقة من رجال الإطفاء وعدد من سيارات البوليس. اعتمر رجال الإطفاء خوذاتهم ، وسحبوا خرطوم مياه ثقيلاً ، واستلّوا عدداً من الفؤوس. وشكّل رجال البوليس نصف دائرة قرب الحوض ، والضابط المسؤول يمسك بيده مكبرة صوت.

خلف المتراس عدد من المسعفين يُجْرون تنفساً اصطناعياً لفتاة مغمى عليها ، وآخرون يعالجون كدمات في جسد شاب من السابحين ، والعيون تترقب.

ارتقى المخلوق السلالم ، ووقف عند حافة الحوض في مواجهة الحشد المتوثب ، والماء يتقطّر من شعره الغزير. عَلَتْ شهقات وهمهمات ، وشهر رجال البوليس أسلحتهم ، وصوّب رجال الإطفاء خرطوم المياه باتجاهه ، منتظرين الأوامر بالتنفيذ.

راح المخلوق يتلفّت حواليه. أيقن أن الوضع لا يبشرّ بخير. لا يمكنه مواجهة هذا الحشد الكبير المعادي ، ولا يدري سبباً للعداء. لابد من الهرب.

التفَتَ إلى سياج المسبح ، فوجده عالياً جداً ، لا يمكن تسلقه بلا سلالم ، فحاول انتزاع سلّم الحوض ، ولكنّه كان مثبتاً بقوة.

حضرت الصحافة. مصورون يحملون كاميرات ومحررون بأيديهم أوراق وأقلام ، وراحوا يلتقطون الصور ويطرحون الأسئلة.

طلب ضابط البوليس من رؤسائه بوساطة هاتف السيارة الاتصال

بخبراء من الكونغو وكندا ؛ لمعرفة وسائل السيطرة على الغوريلات والدببة الهائجة ، فنصحوهم باستخدام السهام المخدِّرة التي تُطلَقُ بوساطة بنادق خاصة.

خلال انشغال رجال البوليس بتهيئة السهام المخدرة استعداداً للهجوم ؛ حضر إلى المسبح رئيس قسم الأجناس البشرية في جامعة السوربون ، ترافقه مساعدته الحسناء ، واتخذا موقعاً منزوياً ، وراحا يراقبان المخلوق بتأن.

استفزّتْ تحركاتٌ رجال البوليس والإطفائيين والصحفيين المخلوقَ ، فازداد اضطرابه ، فعقد العزم على المواجهة العنيفة ، بعد أن يَئس من الهرب والنجاة بسلام.

بيسراه أمسك بساق كرسي قريب وجعله درعاً يحتمي وراءه ، وبيده اليمنى تناول قنينةَ شراب فارغة ، كسرها وأبقى عنقها في يده ، ليتخذها سلاحاً حين يشق طريقه خلال الحشد.

التمعتْ عينا البروفسور رئيس قسم الأجناس البشرية وابتسم. خطر في باله خاطر غريب ، وهو يراقب المخلوق ، ولقد تبين لي لاحقاً أنه هو الخاطر ذاته الذي ثار في بالي ، وأنا أنظر إلى علي حمادي حين نزع ملابسه.. إنه أنكيدو ولا أحد غيره.

التفَتَ إلى مساعدته الحسناء ووجّه إليها شيئاً من التوجيهات ، فابتسمتْ وراحتْ تنزع قميصها بحركة رشيقة أخّاذة ، ووضعته جانباً ، ومدت يديها خلف رأسها وراحت تطلق شعرها المعقود (ذيل

حصان) ، لتجعله ينساب على كتفيها شلالاً من الجمال ، يخفف اكفهرار الأجواء وتوترها ، ثم راحت تخلع البنطلون. صفر عدد من الشباب إعجاباً بما يرون من فتنة ، طغتْ على ما حولهم مما أحاط منها بالسابحات.

يذكر البروفسور جيداً من خلال قراءته ملحمة كلكامش المترجمة إلى اللغة الفرنسية أن أنكيدو قاوم بشراسة قوة كلكامش الجبار ولم يستسلم له ؛ ولكنه ألقى أسلحته طائعاً مختاراً بحضرة الجمال ، فاستسلم ونفّذ إرادة الفتاة الجميلة بطيبة خاطر ؛ وترك البرية وسكن المدينة سعيداً بجواره للجمال. فَلمَ لا يجرب السلاح القديم ذاته؟ لعل التأريخ يعيد نفسه!

توجهتْ المساعدة إلى المخلوق بخطوات تشبه خطوات عارضات الأزياء ، والعيون والأفئدة والألباب ترافق خطواتها ، حتى البروفسور راح يتابع حركاتها مبهوراً ، وهي ما تزال تتقدم.

فغر المخلوق فاه ، وبدأ توتره بالتلاشي ، لتنتابه حالة من التصلّب الخفيف. بدأ بالاستسلام التدريجي ، فأنزل يده اليسرى ، وتخلّى عن الكرسي ، وأفلتت يمناه عنق الزجاجة الجارح ، وهي تنخفض إلى الأسفل ، فبقي كيانه كله مكشوفاً أمام جيش الفتنة الزاحف المكتسح.

وتحررت المساعدة الحسناء من قيود الزمان والمكان ، فعادتْ إلى زمن بعيد ، تفصله عنا آلاف من السنين ، لتحط رحالها في بقعة برِّيَّة معشبة قرب أسوار (أوروك) ، وتقف في مواجهة ذلك الكائن

الغريب العنيف ، محاولةً استدراجه ليستسلم.

نَسيتْ باريس وجامعة السوربون ، ولم تَعُدْ تعي إلا لحظات المواجهة الحاسمة. ونسي المخلوق رجال البوليس والإطفاء والصحافة ، وأحس بندم شديد ؛ لأنه فكّر في تسلق جدران المسبح والهرب ، ولم يعد يرى شيئاً في الوجود إلا هذه الهبة الربانية التي جاءت على غير انتظار ، يرافقها السرور والأمل البسّام.

اقتربتْ منه وهي تنظر في عينيه بجرأة وإصرار ، فراح يتراجع ، وهي تتقدم. أحسّ أنه أصبح على حافة حوض السباحة ، فتوقف بينما استمرت هي في التقدم وعيناها ما تزالات تنظران في عينيه. وحين كادت أن تلامسه وضعتْ أصابع كفها الأيسر على صدره... على اللّبدة التي تغطي صدره وبنعومة دفعَتْه إلى الماء وقفزتْ خلفه.

تناهت ضحكاتهما مجلجلةً إلى أسماعِ الحضور ، فيها كثير من الشهقات وبهجة الحياة ، فلم تطق معظم السابحات صبراً على ما يسمعن ، فتجاوزن المتراس راكضاتٍ نحو حوض السباحة وقفزن إلى الماء ؛ وشكّلن دائرة حول الثنائي السعيد ، وهن يضحكن.

أمسكتْ يديه وغاصتْ تحت سطح الماء ، وقادته إلى قاع الحوض ، وراحا يتقلّبان مثل فقمتين.

ارتقت المساعدة سلّم الحوض ، وهو يتبعها جذلاً ، ومن خلفهما سرب السابحات الحسان. أمسك بيديها وراح يقفز حولها في دائرة ، وهو يقهقه قائلاً:

هيه.. هيه... هيه

أشارتِ إليه بأنها ترغب في أن تعتلي كتفيه ، فأسند إحدى ركبتيه إلى الأرض ، وثنى الأخرى فارتقتِ ظهره واعتلَتِ كتفيه ، ودلّت ساقيها على صدره.. عمودين من الرخام الصقيل ، أسندهما نحات إلى جدار تعلوه ستارة سوداء في مشغله.

استخفّه الطرب ، فراح يفكر في أهزوجة يعبّر بها عن أحاسيسه. ومن مسار أحلامه التي تغذيها معطيات الحالة التي يحيا ثوانيها بكل ما يمتلك من وعي وتركيز ، راح يقفز ، وهي على كتفيه قائلاً:

(مبارك عرسك يلهيبه... مبارك عرسك يلهيبه)

وموجة السرور ما تزال تغمره ، فواصل الأهازيج:

(عرّيس وربعه يزفّونه.. عرّيس وربعه يزفّونه)

والسابحات الحسان يقفزن مثله وهنّ يصفقن بمرح.

تخلّى رجال الإطفاء والبوليس عن وضع التهيؤ ، ثم شاركوا- ومعهم السابحون الشباب- الحشدَ المبتهجَ القفز والتصفيق ، وراح المصورون يسجلون وقائع الاحتفال بدقة.

وحظي علي الحمادي بزفّة لم يحظَ بمثلها أحد من أبناء العشيرة.

نشرت الصحف الفرنسية الصادرة صباح اليوم التالي قصة المخلوق الغريب معزَّزَة بصور كثيرة له.

* *

كان علي الحمادي يبتسم تارة ويضحك تارة أخرى ، وهو يستمع إلى حكاية المخلوق الغريب في حوض السباحة الباريسي.

سألني:
واللغة.. هل فكرت في اللغة؟ كيف ستحل معضلتها؟
- إنّ من ينقلك من كركوك إلى باريس في غمضة عين قادرٌ على تعليمك اللغة الفرنسية في دقيقتين.

* * *

(ذهب مع الريح) وركض مع الريح

(كلمات حاقدة)

القلب النقي تماماً معرّض دائماً للانكسار. شيءٌ من الحقد ضروري في المعركة المعلَنَة ضد الشر والأشرار.

هل توحي هذه المقدمة البسيطة العنيفة بمسار هذه الخاطرة؟

لاشك في أن الإجابة هي(نعم). المنصِفُ سيسأل مستغرباً عن السبب الدّاعي إلى مثل هذا العنف ، ولكنّه لن يستكثر دقائق ، يمضيها في قراءة هذه الأسطر.

(ذهب مع الريح) هو عنوان رواية أمريكية ذائعة الصيت ، قرأَتها أجيال متتابعة كثيرة ، وشاهدَتها على الشاشة الفضيّة أعداد من المشاهدين تفوق أعداد قرائها. والإعجاب بها يزداد يوماً بعد يوم ؛ لأن الحدث فيها تجاوز حدود الزمان والمكان ، ومسارات الذوق في عصر معين.

إن الحدث الحقيقي فيها هو الصراع المحتدم بين أنماط من السلوك

الإنساني ؛ ورصْدُ مصائر أفراد ، هم نماذج بشرية تحيا في كل زمان ومكان.

الأبطال الأساسيون في الرواية أربعة... رجلان وامرأتان. وإلى جوارهم عدد غير قليل من الشخصيات الثانوية ؛ ذات الصلة بهم والأثر في أحداث الرواية.

زمن الرواية هو الحرب الأهلية الأمريكية ، ومكانها هو الجنوب الأمريكي ، مدينة اسمها(تارا)... الجنوب الأمريكي ، حيث مزارع القطن الواسعة ، وحيث يعيش السكان ، وأغلبهم من الملّاكين في ظل نظام تحكمه الأعراف والتقاليد المحافظة.

أول أبطال الرواية مغامر عابث ، لا يلقي بالاً للأعراف ولا يلتفت إلى التقاليد. زير نساء ، ساخر جريء ، لا يأبه بمقت الآخرين إياه. وحين يواجه مواطنيه المستبشرين بإعلان الحرب ضد ولايات الشمال بالمصير المحْدِق بهم ؛ وبأنّ عالمهم القديم موشك على التداعي ، حين يواجههم بهذا يقابلونه بزجر وازدراء ، وهم يسرعون إلى جبهات القتال ، تداعبهم أحلام النصر والأمجاد ، ثم تصبح أحلامهم كوابيس. ولكنّه في ذلك الوقت تحديداً ، في الوقت الذي تصبح فيه هزيمة الجنوب حقيقة لا تشوبها شائبة ، يحمل سلاحه ويمتطي جواده ، ويمضي ليخوض إلى جانب مواطنيه الجنوبيين المعركة الأخيرة الخاسرة.

والبطل الآخر واحد من رجال الجنوب الذين أسرعوا إلى

جبهات القتال مستبشرين ؛ وعادوا منها منكسرين. انهارَ حين تداعى عالمه ، فبقي حطام رجل. توزع قلبه بين حبٍ محرّم وزوجةٍ مُحبة وفية رائعة. بقي كومة من الحطام ، تحكي ذكرياتٍ مجد غابر.

أولى المرأتين فتاة لا يقف طموحها ورغباتها عند حد. لا تأبه بالمبادئ. لديها استعداد للتسلق على جثث أقرب الناس إليها وصولاً إلى غاياتها.

والأخرى مثالٌ للبراءة والالتزام بالأعراف ونقاء القلب ؛ ذلك النقاء الذي سبَّبَ انكساره وكشف ظهرها لتتلقّى طعنة غدر. ولكنّها بقيتِ متماسكة. منعها الكبرياء والرفعة من الانهيار. بقيت شامخة مثل أشجار مدينتها التي لم تنل منها الحرائق أو مدافع الشمال.

أما الشخوص الآخرون فكانوا أقل فاعلية.

بطلُ حكايتي يمتلك من الحضور والفاعلية وقوة الأداء ما امتلكته الشخصيات الأربع الرئيسة في(ذهب مع الريح). ولقد دفعتني للربط بينه وبين تلك الشخصيات أسبابٌ منها الانهيار المشترك ، انهيارُ عالمين تفصلُ بينهما مسافاتٌ شاسعة وزمن يمتد لأكثر من مائتي عام. انهيار الجنوب الأمريكي الذي صارت الحرب الأهلية الأمريكية خاتمة له ، وانهيار السلطة في العراق ، الذي بدأ قبل الاحتلال الأمريكي بأكثر من عقد من الزمن ؛ حين اندحرت المبادئ أمام السلطة الغاشمة.

وسبب آخر هو الحديث عن المبادئ.. محنة المبادئ ، محنة

الصدق ، وهو يدفع ثمن النقاء والبراءة والعفة ، فيخلي المكان للزيف والنفاق وكلّ خُلق ذميم ، سواء تسترّتِ هذه الرذائل ببراقع ، أو ظهرتِ سافرةً بوقاحة.

وسبب آخر ، جَعَلَتْهُ دراستي لعلم الدلالة ماثلاً في ذهني بشكل فعّال ، ذلك هو انتماء مفردات العنوانين ، عنواني الرواية ، والحكاية إلى حقول دلالية واحدة.

عنوان حكايتي الذي اخترته باقتناع تام هو(ركض مع الريح). والفعلان(ذهبَ) و(ركضَ) ينتميان إلى حقل دلالي واحد ، فهما يدلان في الحالتين على مسير ، ولكنه متفاوت السرعة ، هو في الحكاية مسير سريع جداً ، يبذل فيه السائر جهداً كبيراً وطاقة هائلة ، فيصبح راكضاً نحو غاياته.

ولفظة (الريح) في العنوانين واحدة ، ولكنها تتفاوت في الدلالة ، فهي في الرواية جزء من مثل كثيف الإيحاء ، أما في الحكاية فإنّ دلالتها تحتمل وجوهاً عِدّة ، هي رياح التغيير ، أو الواقع المعاش ، أو الفرص المواتية. وهذه (الفرص) تذكّرني بالقول الشعبي الساخر اللطيف ، الذي يُقالُ لصيّادي الفرص ، وهو (روح.. والهوه بظهرك) أي امضِ إلى غاياتك فإنّ الفرص مواتية.

لاشك في أن سلوك أبطال الرواية وأخلاقهم هي ذاتها ، سواء قبل انهيار عالمهم أو بعده ، ولكن الانهيار أطلق لها العنان فبدت بلا رتوش ، وكذلك بطل الحكاية ، فإنّ انهيار النظام الجليّ ،

المتزامن مع الاحتلال أمدّه بأقوى قدر من الطاقة ، فصال وجال دون رقيب ، وراح يخطب ويهتف بصوت عالٍ ، لأنّ الاحتلال ترك الساحة خالية للأصوات النشاز.

لم يبق باب حزبٍ أو تجمّعٍ سياسي ظَهَرَ بعد الاحتلال إلا وطرقه عارضاً بضاعته.

وتذكّرني(لم يبق) بواقعة حقيقية مشوبة بالحزن ، حدثَتْ في أحد أقضية محافظة الأنبار قبل زمن ليس موغلاً في القِدم.

إنها حكاية أرملة كادحة ، اسمها (وحَيِّده)- مصغّر وحيدة- تُعيلُ خمسة أطفال أيتام.

كانت تكسب رزقها في مطحنة حبوب في مدينة تابعة لمحافظة الأنبار. تتولى مناولة أيّ شخص يقف قرب فوهة ماكنة الطحن علبة صفيح ؛ تملؤها بالحنطة ليلقيها ذلك الشخص في آلة الطحن. وطبيعة العمل تلزمها أن تكون في موضع تحت العامل ، الذي يقف على لوح خشبي طويل (درّاب) ، فترفع إليه الصفيحة بكلتا يديها ، فينحني هو ليتناولها.

اعتاد البدو أن يتعاملوا مع صاحب هذه المطحنة ، فيطحنوا ما يبتاعونه من حبوب عنده ، فيعتلي أحدهم (الدرّاب) ووحَيِّدَه تناوله صفائح الحبوب ، وهي تتصبّب عَرَقاً.

وفي ذلك الزمن القديم ، لم يكن معتاداً ولا متاحاً للناس لبس الملابس الداخلية.

الكل يرثي لشقاء وحَيِّدَه ، ويُكَبِرُ صبرها وعناءها وكفاحها من أجل لقمة العيش الشريف. لم يكن لديها شيء تُحسد بسببه إلا الصبر والعفة ، لذا فقد فوجيء جلساء أحد وجهاء المدينة حين قال:

لا أحسدُ إلا وحَيِّدَه ، إذ لم يبقَ بدوي إلا ورأتِ عورتَه!

لم يبقَ بدوي إلا ورأتِ وحَيِّده عورتَه ، ولم يبقَ حزب إلا وطرق هذا البطل بابه عارضاً بضاعته ، وهو يرتدي بدلة أنيقة ، ويتكلم بنبرة رقيقة وعباراتٍ مُنمَّقة ، وحركاته مدروسة بعناية ، تدلّ على ذوق و (أتيكيت).

إنه ممثل بارع ، يجيد تمثيل دور الوطني الحريص على بلده ، والمثقف الذي يجيد تحليل الأوضاع ورسم المسارات المفضية إلى النهايات السعيدة.

لقد أجاد التمثيل قبل الاحتلال وبعده. وشأنَ كل الممثلين البارعين ، كان أجره يزداد دائماً.

إنّ مهنة التمثيل متعبة ، تستهلك كثيراً من طاقة الممثل ، فتلجئه إلى الترويح عن نفسه ، بشكل يفوق المعتاد أحياناً.

أجملُ مُتَعِ هذا الممثل البارع ، حين يصبح بعيداً عن أنظار الجمهور والنقاد هي السخرية من المبادئ والاستخفاف بأهلها أو انتقادهم.

انتقد يوماً شخصاً عُرِفَ عنه الأدب والرفعة وكُرْهُ المتاجرة

بالمبادئ ، قائلاً:

أنتَ مثقف جيد ، ولكنك تعاني من فشل في العلاقات.

فأجابه الشخص الآخر بهدوء:

هذا لأني أرفض أن أبيع نفسي.

* *

جلس الأحنف بن قيس ، الذي يُضربُ به المثل في الحِلْمَ ، في مجلس حاكم خطير الشأن ، وحين انبرى أحد المتزلفين لينافق ، مادحاً الحاكم غادر الأحنف المجلس مستاءً.

أحسّ المنافق باستياء الأحنف وامتعاضه من نفاقه ، فقصده معتذراً قائلاً:

إن خزائن المال بيد هؤلاء ، ولا يفتحها إلا مثلُ ما سمعتَ.

فقال الأحنف:

يا ابن أخي! إن ذا الوجهين خَليقٌ ألاّ يكونَ وجيهاً عند الله.

* *

أعرفُ جيداً ، وأعترفُ أني لا يمكن أن أصل إلى ما وصل إليه الأحنف ، وإنّ أول مظاهر عجزي أني لا أستطيع أن أكون حليماً سَمِحاً مثله ، فقد نادى ذلك المنافق بـ (ابن أخي) ، وهذا دليل ساطع على حلمه وطيبته ، أما أنا فإني لا أستطيع أن أخفي أو أقهر حقدي على أمثال هذا الممثل الرخيص ، على الرغم من ارتفاع أجره. لذا أقول بإصرار:

إن وحَيّـده الـتي لم يبـقَ بـدوي إلا ورأتْ عورتَـه أفضـل آلاف المرات وأنقى وأطهر من كل الممثلين البارعين ، الذين لم يبق باب حزب سياسي إلا وطرقوه عارضين بضاعتهم.

* * *

(أرض الله الصغيرة)
والفردوس المفقود

حدثني صديق طبيب عن فعاليات افتتاح مركز صحي في(حي الجامعة) ، الكائن في قضاء الكرخ في بغداد ، مشدّداً على موقف إنساني مؤثر ، رافق تلك الفعالية وترك في نفسه أثراً أعمق من أية دلالة مهنية لهذا الإنجاز.

كُلِّفتَ لجنة من الوزارة تضم أطباءومهندسن وموظفين من اختصاصات مختلفة باستئجار بيت في المنطقة المذكورة ؛ يصلح لأنْ يكون مركزاً صحياً. وجاء اختيار اللجنة موفقاً تماماً. بيت موقعه ممتاز وتصميمه ملائم جداً. وتم توقيع عقد الإيجار مع مالك البيت ، ثم باشرت فرق عمل فنية مختلفة في تهيئة البناء للوفاء بواجبات المراكز الصحية. ووُزِّعتَ إعلانات في المنطقة وعُلِّقَتَ لافتات تشير إلى موعد افتتاح المركز.

وحان موعد الافتتاح ، زينة تغطي واجهة البناية ، أشرطة ورقية ملونة تتدلى ، ويتلاعب بها الهواء أحياناً ، كما يتلاعب بخصلات

شعور الفتيات اللائي لا يرتدين الحجاب ، وشريط الافتتاح الأحمر الموتّر ، ومقص في صينية فضية محاط بالزهور ، تحمله صبية في العاشرة من عمرها لا تقل جمالاً عن تلك الزهور. وحشد من المدعوين في أبهى منظر ، وابتسامات تزين الوجوه والعيون.

على جانب الحشد رجل طاعن في السن ، أنيق المظهر ، بيده اليمنى عكاز. هو أكبر الموجودين سناً. لم يخالج من انتبه إلى وجوده الشك في أنه من المستفيدين من أدوية الأمراض المزمنة.

بدأت فعالية الافتتاح ، وأخذ الضيوف والمنتسبون بالتجوال في أقسام المركز ، تحفّ بهم لجنة الاستقبال ومضيفاتها ، والرجل يسير خلف الركب وحيداً. تأخر في المسير قليلاً ، ثم دلف إلى حجرة واسعة ، فيها شرفة تطل على حديقة الدار. وقف في الشرفة يتأمل ، وأطال الوقوف ، وهو مستند إلى عكازه.

انتبهتِ إحدى الشابات المضيفات إليه قبل بدء الاحتفال. اقتربتِ منه وقدّمتِ إليه كرسياً ورجته أن يجلس ، ثم وضعت أمامه منضدة صغيرة ، وقامت بواجبات الضيافة على أتم وجه. سألته بلطف:

أتسمح لي بأن أجلس قربك؟

هبّ واقفاً بحياء ، وهو يضع يده اليسرى على صدره. جلست على كرسي أمامه وهي تقول:

سيفيدك وجود المركز الصحي ، ولاشك.

هز رأسه بالإيجاب قائلاً:

سأكون قادراً ، من حين إلى آخر على الدخول إليه واستعادة الذكريات.

سألته بلهفة:

أية ذكريات؟

- كنتُ مالك هذه الدار منذ زمن بعيد. وقد بعتها تحت ضغط ظروف قاهرة ، واشتريتُ داراً صغيرة قريبة ، ولكنّي ما أزال أحنّ إليها.

طالما جَلَسْتُ هنا في هذه الشرفة ، أنا وزوجتي أم سمير رحمها الله ، نخطط لمستقبلنا!

واغرورقتْ عيناه بالدموع ، فأجهشْت المضيفة بالبكاء ، فقام مسرعاً ، معتذراً بصوت مخنوق.

* *

جبل الصُّمَّان واحد من المواقع التي ذُكِرَتْ كثيراً في الشعر العربي القديم. وما يزال أسمه حياً إلى الآن. توهّج اسمه كما في الزمان القديم ، عبر قصة حدثت قبل ما يقرب من مائة وخمسين عاماً ، تناقلتها مجالس العرب في الجزيرة العربية بفخر واعتزاز ، قصة خطّها السيف بعمق على صفحات الوجدان العربي الناصعة.

(راكان بن حثلين) رئيس قبيلة (العجمان) العربية الأصيلة ، وفارس الصحراء العربية الذي رفع اسم العرب عالياً في أصقاع

بعيدة عن جزيرة العرب ، شخصية تأريخية شبه أسطورية ، كان يمكن أن يصبح بطلاً أسطوريا ، مثل أبطال الأساطير في الملاحم الاغريقية ، لو لم يُثْلَم السيف العربي وتُحال البطولة العربية إلى محكمة الجنايات ، وتقف في قفص الاتهام محاطةً بسجّانين يرتدون أزياء العولمة.

كانت سلطة العثمانيين قوية في الجزيرة العربية. قاومتهم القبائل العربية بصبر وعناد وشراسة ، واضطلع الشيخ راكان بن حثلين بدور كبير في هذه المقاومة ، إلى جانب شيوخ ورجال أبطال آخرين. أقضّ مضاجع العثمانيين وكدّر صفو حياتهم ، فوضعوه نصب أعينهم ، وجعلوا الإيقاع به هدفاً مركزياً ونجحوا في ذلك بمكيدة.

نفوه إلى جزيرة قرب الإستانة ، وبقي في المنفى سبع سنين. سُجِنَ في قلعة عالية الأسوار ، كئيبة الأجواء مثل أي سجن.

لم ينل السجن من خصاله وسجاياه الكريمة ، بقي مثلما هو دائماً ، شامخاً عزيزاً أبي النفس ، دمثاً كريماً. احترمه آمر السجن وضباطه ، وأحبه السجّانون والسجناء. أقربُ السجّانين إلى نفسه (حمزة) العسكري المكلف بحراسته. نشأتْ بينهما صداقة حميمة.

على مقربة من القلعة دارت معركة طاحنة بين الأتراك وجيش أوربي معادٍ ، دخل الأراضي التركية غازياً.

انبرى فارس من الجيش المعادي الغازي يطلب المبارزة ، وراح يقتل أيَّ فارس يبارزه ، حتى ضعضع معنويات الجيش العثماني.

آمر السجن وضباطه يراقبون الأحداث بقلق وارتباك. الخسائر تزداد والفارس الخصم يصول ويجول متحدياً.

لاحظ آمرُ السجن أن السجناء المتجمعين في ساحة القلعة أخذوا يشيرون إلى السور الأمامي ، المطل على ساحة المعركة ، فنظر إلى حيث يشيرون. كان الشيخ راكان يعتلي السور مثلما يعتلي صهوة جواد ، وهو يلكزه بكعبي قدميه ، ليحثه على الجري. طلب الآمر من السجّان حمزة أن يستطلع خبر الشيخ راكان. حين عاد حمزة إلى الآمر أخبره أن السجين العربي يرجوه أن يسمح له بمبارزة الفارس الخصم ، وأن يزوده بسيف وفرس ، يقوم هو بانتقائهما.

تمت الموافقة بلا تردد ، وانتقى الشيخ راكان سيفاً وفرساً ، راح يدربها بإتقان وسرعة ، ريثما يتم الاتصال بقائد الجيش لعرض الفكرة عليه. وافق القائد بلا تردد هو الآخر.

برز الشيخ راكان للفارس الخصم ، ولم يمهله طويلاً. جوله واحدة ، خرّ ذلك الفارس بعدها مضرجاً بدمائه. ملأتِ صيحاتُ الفرح والتكبيرات الأرجاء ، وصال الجيش العثماني فوراً ، وانهزم الجيش المعادي. دخل الشيخ راكان القلعة راكباً الفرس ، محاطاً بالتحايا ونظرات الإعجاب. ترجّل عن الفرس وسلّم زمامها والسيف إلى حمزة ، وذهب إلى زنزانته.

علم السلطان العثماني بحكايته ، فعفا عنه وطلب أن يراه.

أدخلوه حماماً تركياً أنيقاً وألبسوه ثياباً فاخرة وزيّنوه استعداداً

لمقابلة السلطان.

قال له السلطان العثماني:

أأنت راكان الذي أسمع عنه؟ تصورتك عملاقاً ، يصل رأسك إلى سقف القاعة.

كان الشيخ راكان قصير القامة ، نحيف البنية. في نهاية المقابلة قال له السلطان:

اطلبْ أيّ طلب تشاء أنفذه لك فوراً.

لم يطلب الشيخ راكان إلا طلباً واحداً ، أثار استغراب السلطان والحاضرين وكلٍّ من سمع الحكاية.. طلب من السلطان أن يُسجّل جبل الصُّمّان باسم قبيلته ... العجمان.

جبلٌ أجردُ ، صخورُه قاسية ، ولكنه وطن... أرض رسم حدودها بشفرة السيف.

* *

(أرض الله الصغيرة) رواية للكاتب الأمريكي (أرسكين كالدويل) تحكي قصة مزرعة تبغ في الجنوب الأمريكي.

مزرعة خَصّصَ صاحبها مساحة منها لله. جعل مزرعته نصفين ، نصفاً له ، ونصفاً لله.. لأعمال البرِّ والإحسان التي عقد العزم على القيام بها ، حين ينتج نصفه الذي يستثمره. وراحت حصته من الأرض تنتج إنتاجاً وفيراً. زادت أرباحه فزادت أطماعه ، فبدأ يقتطع من أرض الله مرةً تلو الأخرى. وفي كل مرة ينقل اللوحة الخشبية

التي ترسم الحد الفاصل بين ما كان سابقاً نصفين ، والتي كُتِبَ في وسطها (أرض الله) ، ينقلها إلى مكان جديد. ولم يبقَ من أرض جاره إلا مساحة صغيرة جداً.. تلة صخرية تتوسط مستنقعاً صغيراً ، تعلوها لوحة خشبية تشير إلى اسم المالك.

هذه الرواية شاهدٌ على إفراغ الأهداف من محتواها ، شاهدٌ على تساقط حروف الشعارات البراقة حرفاً تلو حرف ، لتبقي اللافتات جوفاء فارغة ، بلا رتوش.. شاهداً على سقوط الأقنعة الباسمة وانكشاف الوجوه الكالحة.

آلافُ الشعارات في العراق اليوم تبشِّر بالخير والرفاء والديمقراطية والشفافية. لن نسأل: ما الذي بقي من هذه الشعارات؟

لأن أية لافتة تعرى وتتساقط حروفها تُزْوَى بعيداً في دهاليز وأقبية مظلمة ، وما أكثرها! تُزْوى لتُرْفَعَ لافتة غيرها ، قماشها جديد وحروفها براقة. ولكن سنسأل: ما الذي تحقق بعد مسيرة السنوات الثمان التي قرأنا فيها آلاف اللافتات وسمعنا مئات الآلاف من الشعارات؟ وحين ينطلق السؤال لن يتوقف سيل الأسئلة ، آلاف من الأسئلة سأختار منها سؤالاً واحداً.

العراق أرض الأنبياء ، فهل يستحق هذا الذي يجري على أرضه؟

يصوّر الشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش حبّ أبيه- الذي ورثه عنه- للوطن قائلاً:

غضَّ طرفاً عن القمرْ

وانحنى يحضن الترابْ

وصلّى

لسماء بلا مطرْ

وأبي قال مرةً:

الذي ما له وطنْ

ما له في الثرى ضريحْ

ونهاني عن السفرْ

* *

بكى الرجل الطاعن في السن ، وهو يدخل داره القديمة ، وقد تداعتِ ذكرياته. بكى حين أحس أنه وطأ تراب وطنه.

وزهد الشيخ راكان بن حثلين في طيبات الحياة من أجل أرض صخرية جرداء تُسجّل باسم قبيلته.. من أجل وطن يريد أن ينتسب إليه.

لن أبخس النجباء الأصلاء حقوقهم ، فلقد بكت عيون وسالت دماء طاهرة من أجل هذا البلد.

إن عبارة بسيطة موجزة نقرؤها على الزجاجات الخلفية لعدد من سيارات (الكيا) ، مثل (أبكيتني يا عراق) هي أبسط دليل على أن نبض الحياة لن يتوقف في القلوب الطاهرة. ولكنّ العراق العظيم يستحق المزيد. ويقيناً أن جموع الخير ورجال المستقبل الذين

يحتشدون في ساحات بغداد العز هم أول موجة من رياح التغيير المنشود ، رياح ستنفي عن وجه العراق... وجه الوطن الحبيب غبار الحقد والطمع والخيانة.

* * *

الحارس الأمين

مفردتان يمكن أن يسميهما اللغويون تعبيراً غير مكتمل الدلالة ، ويمكن أن يقول فيهما النحاة إنهما صفة وموصوف ، وهذا الموصوف يصلح لأن يكون مبتدأ أو خبراً. وسواء كان هذا أو ذاك تبقى الدلالة في هذا التركيب غير مكتملة.

من هو الحارس الأمين؟

أو من يصلح لأن يُوصَفَ بهذا الوصف؟

قد يُقال: الحارس الأمين محبوب أو محترم أو مغضوب عليه ، وقد يقال:المسؤول الكبير هو الحارس الأمين ، أو المواطن البسيط هو الحارس الأمين ، أو... أو... كثيرة هي الاحتمالات ، وكثيرة هي الذوات المرشحة لأن تكون مبتدأ أو خبراً. ويبقى مقياس الصلاحية الأكثر دقة هو النتائج المتحققة بعد مرحلة الأداء ، سواء طالت مدتها أو قصرت ، سواء عددناها بالأيام ، أو بالشهور ، أو بالسنوات. سواء كانت مائة يوم ، أو مائة أسبوع ، أو مائة شهر.

هذه حكاية بسيطة عن واحدة من الذوات المرشحة لحمل هذه الصفة.

* *

اعتدت كلما عقدت العزم على زيارة شارع المتنبي أن أنطلق باكراً ، لأتفقد أكبر عدد من الكتب المعروضة ، بحثاً عن عنوان جديد أو دراسة مفيدة ، ثم أغادر مسرعاً ، بعد تحقيق غايتي إلى سوق الغزل ، لأبدأ جولة أخرى من الاستطلاع ، مكتفياً بالنظر في أغلب الأحيان.

وفي إحدى الجُمُعات التقيت ابن عمي عادل مشعل ، وبصحبته صديقه الأثير عبد الرزاق علوان... (أبو جون). أعرف جيداً أنهما ليسا من هواة تربية الطيور ، الأمر الذي أثار استغرابي ، فسألتهما عن سبب زيارتهما السوق ، فقال عادل مبتسماً:

جئنا بصحبة(توم).

أتذكر جيداً أن عبد الرزاق ، اختار كنيته(أبا جون) مُذْ كنا صِبيةً ، تطلّعاً إلى التميز والفرادة.. إنها نزوة ، يغفرها التسامح وسعة الصدر ، عند النظر إلى هفوات الصبيان ، ولكن أنْ يُصرّ مثل هذا الإصرار على نزواته الصبيانية ، وقد قارَبَ الأربعين فأمر لا يمكن التساهل فيه. لم يكتفِ بـ(جون) كنيةً ، فسمى ابنه (توم).

نظرتُ إليه بعتاب وسألت:

أين هو؟

أشار عادل إلى كلب ، يمسك بسلسلته واحد من باعة الكلاب ، وهو منشغل بتعداد مزاياه لعدد من الراغبين في الشراء.

كلب أبيض ضخم مثل كبش. نظرات حادة وبنيان متين وفك عريض ، يمثل خطراً ، يهدد حياة كلّ من تسوّل له نفسه التجاوز على ممتلكات الآخرين.

التفتُّ إلى عبد الرزاق وقلتُ ، عبر إحساسي بتسرعي بالحكم وسوء ظني ، وبطريقة تشبه الاعتذار:

لقد قادتني ظنوني بعيداً!

سألني ضاحكاً:

ماذا ظننتَ؟

- لا شيء مهم.

فسألني عادل ممازحاً:

ألمْ تربط بين (توم) و(جون)؟

- بلى.. لقد فعلتُ ، ولم يكن لي من سبيل غير هذا! منذ متى أخذتَ تربي الكلاب؟.. قبل هذا أهو لكَ أم لعبد الرزاق؟

- أنتَ تعرف رأيي بالملكية الفردية. إن كل ما نظن أننا نملكه ، أو يحاول الآخرون إقناعنا بأننا مالكوه يجب أن يُسخّر لخدمة حركة المجتمع. لذا يمكنك القول إن (توم) مِلكية عامة ، ولكنّ انحرافنا الفكري يصوّر لنا أننا ذوو مصلحة خاصة فيه.

- ما تزال كما أنت! لم تتغير. إني لأعجب كيف يفهم عبد

الرزاق كلامك ، هل تتفاهمان بالإشارة؟

- أنا وعبد الرزاق مثال حي على التطبيق الناجح لدكتاتورية البروليتاريا. الفكر واليد العاملة يخلقان الثورة.

قال عبد الرزاق الذي كان يراقب(الدّلال) ، وهو يساوم عدداً من الهواة:

أعتقد أنه باعه. فهمت سؤالك. أتدري ما الذي عجّل بمشيب شعري؟ أتدري ما الذي جعلني أبدو عجوزاً قبل الأوان؟ إنه أحاديث ابن عمك. إني أتحمل أحاديثه نهاراً ، هذه التي لا أفهم منها شيئاً أملاً في سهرة المساء حين (يتسلطن) ، فيأتي بالكلام الفصيح المليح. لولا أحاديثه (المسائية) للعنت اليوم الذي عرفته فيه.

اتجه عادل إلى (الدّلال) الذي تسلم ثمن (توم) من المشتري ، وأخذ المبلغ ، بعد أن منح الدّلال العمولة و (الإكرامية).

أمسك الشاب المشتري بسلسلة (توم) ، وهو ينظر إليه بإعجاب ، وانطلق مسرعاً ، فأخذ (توم) يحاول التخلص مزمجراً ، وهو يرفع ساقيه الأماميتين ، مثل حصان جامح ، فاتسعتِ ابتسامة الشاب وتهللتِ أساريره ، لقد أسعدته صفقته الرابحة.

سألتُ عبد الرزاق:

ما قصة (توم) هذا؟

- اشتراه ابن عمك (حكمة) ، ثم تركه لعادل عندما سافر ، فقرر عادل أن يبيعه.

- لماذا؟ إنه يبدو كلباً ممتازاً!

- سيخبرك عادل السبب.

سألت عادلاً:

لماذا بعتَ الكلب؟

- لأنه كلب ابن كلب!

- وماذا كنت تنتظر.. كلب ابن غزال؟

- لا ليس هذا...بل كنت أنتظر الحد الأدنى من الصدق والنزاهة في الأداء.

- مما رأيت أستطيع أن أقول إنه كلب ممتاز. يبدو لي أن فرحة الشاب الذي اشتراه لها ما يسوّغها ؛ مثلما يبدو لي من تمرده وحركاته أنه قادر على ردع العابثين.

- أرأيت كيف انطلت عليك وعلى ذاك الشاب ، مثلما انطلت على (حكمة) ألاعيب (توم) وحركاته المخادعة؟

إنه ممثل بارع وأنتم ضحايا أبرياء! إنه أنموذج للقوى الرأسمالية المستغِلّة ، وأنتم مثال حي للفئات المخدوعة التي تتلاعب بها وبعواطفها تلك القوى اللئيمة.

- أنا متأكد من أن (ماركس) لم يضع في حسبانه يوماً أن مخلوقاً مثل (توم) سيكون شاهداً على صواب أفكاره.

- لو عرفتَ حقيقته وقصته لقلتَ إنه أخطر أنموذج ، يمكن أن يجسِّد سلوكيات المستغِلّين.

- ما هي قصته؟

- يُستحسن أن أرويها لك في أجواء ، تؤجّج فيّ عناصر الإبداع وتذكي المعاناة ، فتعيدها إلى ذاكرتي ، لتحمل كلماتي نصيباً من حرارتها ، فتفعل في نفسك فعلها.

- وهل هذا ما يجب أن تكون عليه نفوس الجماهير ، وهي تتلقى برامج التوعية؟

- نعم! يجب أن يتصاعد فيها لهيب المعاناة.

- المعاناة من أمثال (توم)؟

- أما تزال تتصوره شيئاً هيناً؟

- قل لي كيف ستتأجج فيك عناصر الإبداع؟

- حين أستثمر قيمة (توم) المادية في نشاط استهلاكي ، يكفل ديمومة التبادل السلعي بين فئات الشعب المسحوقة ، مثلما استثمرنا قيمة(عباءة) عبد الرزاق ، التي كانت مظهراً من مظاهر المجتمع الإقطاعي.

- تعني العباءة التي قمتما ببيعها في سوق (الإسترابادي)؟

- نعم!.. لقد كانت مظهراً إقطاعياً ، يرفضه المجتمع الجديد المنشود.. مظهراً تختفي تحته مصالح طبقية ، تتعارض ومصلحة الطبقة الكادحة الناهضة. لقد تحرر عبد الرزاق بتخليه عنها من عامل معوق معرقل لفعل ثوري وفكر بنّاء.

سأله عبد الرزاق:

هذا الحديث كله عن العباءة التي بعناها قبل سنين؟ لو كان (الأمن) يعرفون هذا (لعلّقوني من أهدابي).

سألته:

ومتى تنوي استثمار قيمة (توم)؟

- الآن.. فوراً.

ركبنا سيارة أجرة ، أقلّتنا إلى (بار الشاطيء الجميل) في شارع أبي نواس.

اختار عادل مجلساً يطل على الحديقة ، ويتاح لمن يجلس فيه النظر إلى نهر دجلة ، الذي انخفض منسوب المياه فيه كثيراً.

رحَّبَ(الجرسون) داود بعادل وعبد الرزاق ترحيباً حاراً ، وأحاطنا باهتمام استثنائي. وسرعان ما اكتظت المنضدة بصحون (المزّة).

سأل داود:

ماذا (تأمرون)؟

قال عادل:

أنا و (الشيخ) عبد الرزاق سنشرب مشروبنا المعتاد (مشروب الكادحين) ، أما الأستاذ – مشيراً إليّ- فهو ذو انتماء طبقي متأرجح ، غير محدد المعالم ، لذا لا أستطيع التدخل في اختياراته ، فضلاً عن كونه ضيفاً له علينا حق الإكرام.

نظر داود إليّ ، وهو يبتسم.

- مثلهما.

أعـرف جيـداً أنـه يسـتجمع قـواه ، ليبـدأ جولـة جديـدة مـن (التثقيف الثوري) ، فأمهلته وانصرفت إلى عبد الرزاق قائلاً:

هل صار الذي اشترى عباءتك على علم بدلالاتها الطبقية؟

- ألا يكفيني ما ألاقـي من عـادل؟ صـرتما أنتمـا والـزمن علـيّ جميعاً! (عباءة وبعناها... كفرنا؟ سيطير المشروب من راسي).

أخذ عادل يتأمله ، وأصابع يده اليسرى ممسكة بالسيجارة ، قريباً من شفتيه ، وقال:

لقد بعنـا العبـاءة استجابة إلى قناعـة ثوريـة راسـخة ، وعلـى وفق رؤيـا مسـتقبلية لا يشـوبها أي غمـوض ، ولا يعكـر صـفاءها أي إحساس سلبي ، أما ذلك اللعين البائس فقد خلّف في نفسي مرارة بأساليبه الانتهازية.

صرتُ بعد شكوى عبـد الـرزاق بـين نـارين ، كـل منـهما تتطلب أسلوباً خاصاً في التعامل ، ولكنّ رغبتي في الاستمتاع بحديث عـادل أرجأتِ مداراة عبد الرزاق ، الذي بدا عليه الاستسلام والرضا بالأمر الراهن ، فقلت:

لعل جذوره الطبقية هشة ، تسمح بمثل ذلك الانحراف؟

- ولعله ينطلق من أرضية فكرية معادية منحرفة.

- كل الاحتمالات قائمة.

قال عبد الرزاق:

هل قررتما ماذا سنتغدى؟

قال عادل:

في سؤالك البسيط هذا قاعدة مهمة من قواعد العمل الثوري البنّاء الهادف ، ألا وهي ضرورة التفكير الدائم بالاحتياجات اليومية البسيطة للجماهير الكادحة ، ونحن نتطلع إلى بناء المجتمع الجديد ونخوض الصراع من أجله.

سألته:

متى التقتِ مصالحكما الطبقية أنت و(توم) ، وكيف رصدتَ انحرافه الفكري ، وهل طال الصراع الطبقي بينكما؟

- إنها قصة طويلة ، بدأت بميول برجوازية شاذة ، غير مشروعة ، ظهرتِ في سلوك فرد كادح ، رفض واقعه الطبقي ، فاختلّت موازينه.

كان عادل يشير إلى أخيه الأكبر (حكمة) ، الذي غادر العراق منذ مدة طويلة واستقرّ في دول الخليج ؛ وأخذ يعمل في تجارة السيارات ، فتحسنت أحواله المادية كثيراً.

اعتاد الترف والبذخ ولذاذة العيش ، وأولع باقتناء النفائس. في آخر زيارة له إلى العراق ابتاع(توم) ، وراح يُسهب في الحديث عن مزايا فصيلته ، التي يصطلح عليها عادل بـ(الانحدار الطبقي).

في الأيام التي لا يغادر فيها(حكمة) البيت ، يجلس في حديقة الدار ويأخذ بملاعبة(توم) ، الذي يبهره بأداء حركات بهلوانية تزيده تعلقاً به ، وإصراراً على إطعامه أجود أنواع اللحوم المعلبة.

ونال(توم) حظوة بالغة لدى(حكمة) ، وكان لديه دائماً ما يبهره

به. لم تكن حركاته بهلوانية دائماً. هذا ما قاله عادل:

لاشك في ذكائه ودهائه. كان متجدداً متألقاً دائماً ، يؤدي أنواعاً من الحركات بحسب ساعات النهار ، ففي الصباح الباكر يبدأ بالجري في الحديقة ، وكأنه يؤدي تمارين الصباح الرياضية ، وينصرف عصر كل يوم إلى أداء الحركات البهلوانية ، أما بعد المغيب فيمسي شيئاً آخر لا صلة له بـ(توم) الذي نعرفه ، (توم) الحريص على كسب ود المحيطين به ، إذ يرفع شعار التوجّس والشك والعداء.. يمسي كلب حراسة من الطراز الفريد ، فيتنكر لعلاقاته ، ويضع الجميع في دائرة الشك والظنون.

- أليس هذا هو المنتظر من كلب الحراسة؟

نظر إليّ عادل ، وهز رأسه بالإيجاب ، وعلى شفتيه ابتسامة غامضة.

صبّ عبد الرزاق لواعج صدره وكل ما يعتمل فيه على صحون (المزة) ، التي تولى داود إدامتها بطيبة خاطر ، ثم نهض قائلاً:

سأطلب إعداد سمكة (مسكوفة).

سألت عادلاً:

لماذا هذا التحامل على (توم)؟ مما سمعت يبدو ملتزماً بواجباته.

- انتظر إلى أن أكمل الحكاية. لقد جعل عودتنا إلى البيت مساءً محنة كبرى ، ما أن يشعر باقتراب أحدنا من باب الحديقة حتى يأخذ بالنباح والزمجرة ، ولا يهدأ إلا بعد محاولات كثيرة ،

نقوم بها لاسترضائه ، فيقف جانباً ، فاسحاً المجال للقادم للدخول ، ووجهه يتقد غضباً.

- ربما يفعل ذلك حرصاً عليكم ، إحساساً منه بأن السهر ليس في مصلحتكم.

- أي سهر؟! ما أن تغيب الشمس حتى ينقلب إلى ذلك الوحش.

عاد عبد الرزاق واتخذ مجلسه وأشار إلى عادل ، فاستأذن ، ثم عاد بعد قليل ، وواصل حديثه:

لم يكن يعنيه سهرنا أو عدمه.الدافع الحقيقي هو الثغرة الكبرى في سلوكه ، وهو المؤشر الأكثر إيحاءً بانحرافه الفكري والأخلاقي.

اتخذ عادل ، وهو يقول العبارة الأخيرة هيئة ممثل الادعاء العام حين يجسّم آثار التهمة. لقد اقترن الألم بالمرارة والحقد في ألفاظه ، حين أخذ يروي حادثة الإدانة.

سهر في إحدى الليالي سهرة طويلة ، وعاد إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل.

قال:

كانت سهرة رائعة ، خفّفتِ حلاوتُها ، وأنا استعيد أحداثها حِدَّةَ المخاطر الملازمة لدخول الدار.

توالتِ طرقاتي الباب ، وطال انتظاري ولا أحد يردّ أو ينتبه ، لا (توم) ولا الأهل. حاولتُ معالجة الباب فوجدته مقفلاً من الداخل ، وتعبتُ ومللت الانتظار ، فتسوّرتُ السياج وقفزتُ إلى الحديقة

مستهيناً بأسوأ ما يمكن أن يحدث.

وتوقف عادل عن الكلام ليلتقط أنفاسه ، وربما ليرصد مدى انشدادنا إلى حديثه. لاشك في أن عبد الرزاق قد سمع هذه الحكاية ، إذ لم يبدِ حماسة تذكر في متابعتها ، أما أنا فلن أنكر استمتاعي ولهفتي لمعرفة ما جرى في قمة الحدث.

سألني عادل ليزيدني انغماراً في دنيا حكايته:

أتدري ماذا جرى؟

هززت رأسي نفياً ، فقال:

هل يمكن أن تضيق حديقة مساحتها تسعون متراً مربعاً بمن فيها إلى تلك الدرجة؟ وليس فيها من المخلوقات الحية إلا أنا و(توم). اثنان من المخلوقات ذات الحجم الطبيعي. كيف حدث ما حدث إذن؟ هل هي الصدفة ، أو هو القدر الذي خطط ، فأجاد التخطيط؟

سألته بلهفة حقيقية:

ما الذي جرى؟

- سقطت فوقه ، سقطت فوق(توم). تصورّ أقفزُ إلى أرض مساحتها تسعون متراً مربعاً ، لأجد(توم) تحت قدميّ. لقد (دست في بطنه)!

تقلّصتِ عضلات وجهي ، وانكمشتُ وأنا أتصور دموية الحدث الذي ترتّب على تلك القفزة المشؤومة.

لهفتي وانشدادي كانا كافيين ليدفعا عادلاً إلى مواصلة الحديث:

رفع (توم) رأسه ، وفتح عينيه ونظر إليّ بتراخٍ ، ثم قال (عَوّ) ، وعاد إلى النوم من جديد...(عَوّ) واحدة.. لم يقل غيرها. ربما لو قال أخرى كنت التمست له العذر ، ولكنها واحدة...(عَوّ) واحدة فقط.

أليستِ هذه خديعة وخيانة؟ ألستُ محقاً حين أثور وأنتقم؟

فقال عبد الرزاق:

بلى.. لك كل الحق. ولقد انتقمتَ من (توم) انتقاماً يشفي الغليل. تذكر هذا حين (تحضر السمكة) وتعامل معها ومعنا بلا انتقام.

* * *

وبعد...

هل يصلح (توم) ، بعد كل ما عرفنا لأنْ يكون واحداً من طرفي الجملة؟ هل يصلح لأن يقال فيه (حارس أمين)؟

إنْ لم يصلح فإن ذواتاً أخرى كثيرة مهيأة للتجريب والاختبار لبيان صلاحيتها.

وما أكثر الحراس الأمناء! وما أكثر الـ (توامه)!

* *

إغسلوني...

السذاجة والفطرة سبيلان ، ربما يقودان إلى عالم رائع من الإبهار والفن ؛ سواء في عالم الكلمات أو الألوان. وليست بعيدة عن الذاكرة تلك الرسوم الملوّنة التي دوّن بها إنسان العصر الحجري تأريخه على جدران الكهوف. تلك الرسوم ربما كانت تأريخ جماعة أو مذكرات فرد ، وسواء كانت هذه أو تلك ، هي صور شدّت خطوطها البدائية ، من بين أشياء كثيرة أنظار علماء من عصر التكنولوجيا والمدنية الراقية.

أتذكر الآن قصة مصورة ، قرأتها قبل زمن طويل عن عامل هولندي كان يعمل في إحدى محطات السِّكَّة الحديد ؛ إبّان الحرب العالمية الأولى ، هوايته الرسم. إنه مدمن على الرسم. رسم كل شيء وقعت عليه عيناه.. القاطرات وعرباتها والمحطة والريف وزملاءه.. رسم زملاءه جميعاً وأصدقاءه كلهم وعدداً كبيراً من الجنود المارين بالمحطة ، وهم في طريقهم إلى جبهات القتال. وكان حريصاً ، قبل أن يرسم أيّ شخص على أن يدون اسم (الموديل) في إحدى الزوايا

السفلى في اللوحة وإلى جواره التأريخ.

حين يشرع في العمل يرسم جسم (الموديل) كاملاً إلاّ الوجه ، قد يضع على الرأس قبعة أو خوذة أو أي غطاء ، ولكن لم يكن هناك شيء تحت هذه الأغطية... لا ملامح.. مخططُ وجهٍ خالٍ من الملامح.

وتكدس في مرسمه عدد كبير من اللوحات ، بينها كثير من اللوحات لشخوص بلا وجوه.. لا يميزها شيء إلا الأسماء والتواريخ في واحدة في زواياها السفلى.

وبعد سنين من وفاة هذا الرجل تسربت قصته وقصة لوحاته الخالية من الوجوه إلى الصحف ؛ واهتم نقاد الفن بقصته وتدارسوا لوحاته وأقاموا معرضاً لرسوماته. تحدثوا عن الألوان والخطوط وتعرجاتها ، ولم يعنهم خلوّ وجوه رسومه من الملامح ، إذ وجدوا ملامحه هو بين خطوطها.

وفي دنيا الكلمات من هذه البساطة والفطرة الساحرتين شيء كثير.

كنت أتحدث في هذا أنا وصديق ، وأمامنا سيارة (كيّا) ، كُتِبَ تحت زجاجتها الخلفية جملة تقول: (إتركني.. مخطوبة) ، فتداعت إلى الخاطر كثير من مثل هذه الجُمل ، بعضها يفصح عن فطرة شجية رقيقة ، مثل (أبكيتني يا عراق) ، فقال صديقي:

قرأتُ يوماً على سيارة حمل كبيرة هذه العبارة (لا تعشق الغرباء

فإنهم على سفر دائم).

... ما أجملها من عبارة! وما أشدّ تجرد السائق الذي أختارها وأكبرَ تضحيته! فلربما أضاع بسببها فرصاً ذهبية ، ولكنه خطّ على الوجدان المرهف ذكرى لا تمحى.

واشرأبت في الذاكرة ذكرى أخرى ، يصعب تجاهلها.

في صباح شتائي مشمس ، سبقه يوم ممطر ، كانت سيارة (كوستر) موحلة متوقفةً ، وقد كتبتِ على أحد جوانبها عبارة بخطٍ ، يوحي أن كاتبها قد أنهى قريباً دراسته الابتدائية. تقول العبارة:

(إغسلوني ليس ماكو ماء)!

هكذا... (ليس ماكو ماء). أليسوا ملومين إذ لم يغسلوها والماء كثير؟

* * *

إطلالة على حقول السكون

في رحاب علم الدلالة أينعت حقول السكون

إن الذي تعنيه لي- وأرجو أن توحيه لك- حقول السكون هو الهدوء والطمأنينة والرضا والنقاء والشفافية- غير تلك التي ينادي بها السياسيون-

.. إنها شيء قريب من دلالة ذلك المصطلح الرقيق ، الذي شاع في دنيا الأدب الحالم (الشجو الشفيف).. إنها حكاية عن حلم سعيد.. حكاية حب تشبه شعلة زرقاء ، طَفَتْ على بحيرة من النفط ، أو على جبل من الكبريت.

حقول السكون لمحة ناعمة ناعسة ، تشبه تحررَ فراشة من شرنقتها وانطلاقها مرفرفةً بجناحيها الملونين ، أو مسيرَ قطيع من الغزلان عند خط الأفق ، والشمسُ توشك على المغيب ، أو صوتَ الناي في (شمس الأصيل).

هي مشهد حالم ، يشبه حالة تلك الشابة الرقيقة الحزينة ، التي

كانت تسكن قرية صغيرة في إيطاليا ، في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهي تُفرغُ من المكواة اليدوية القديمة التي تُسَخَّنُ بالفحم ، تُفرغ الرماد قرب أشجار حديقتها الصغيرة ، لتغذي تربتها.

نهارها طويل... طويل ، وليلها أطول.

تنهشها عيون الرجال نهاراً ، ويمزق قلبها الشوق إلى زوجها والخوف عليه. زوجها القابع في خنادق القتال على الحدود.

مشاهد صارت نادرة في حياتنا التي ساد فيها الضجيج والصراخ وأصوات الرصاص ؛ سواء في الحياة التي نكتوي بنارها أو نشاهدها في الأفلام... أفلام الحركة (الأكشن) وأفلام الكوارث ومباريات المصارعة الحرة والملاكمة.

حقول السكون واحات سحرية ، تشفي نسماتها أوجاع النفوس. واحات نقلتني إليها أفلام مثل (ساهد في سياتل) و(نوتنك هيل) و(الحبُ حقيقةً). واحات حالمة تشبه بغداد ، الغادة العذراء.. تشبه محلاتها الوديعة ، حيث (الچراديغ) ، و (الچوبي) والمراجيح. هدؤها من طراز ذلك الهدوء الذي يرين على مواقف (الاختياري) في أطراف بغداد.

حين ترتدي المدن والناس ، والأشياء من حولهم ثيابَ الحداد تمسي كل ذكرى رقيقة وصوتٍ من الماضي البهيج وتراً آخر جديداً في قيثارة الأحزان ؛ يذكي الألم ويزيد الروح رقةً.

في جزر العزلة النائية المحاطة بأعاصير مدمرةٍ ووحوشٍ مفترسة ،

يصير لقاء الصدفة بوجوه من الماضي مثلَ أضواء الفنارات التي لا يمنع شحوبها بارقة الأمل.

ثلاثة لقاءات غير متوقعة في يوم واحد نعمة كبرى ، قد لا يحتملها القلب ، في ظل متاعب العمر وأحزان المدينة. ثلاثة لقاءات يقود كل واحد منها إلى ظل ظليل ، يقي الجسد والروح لهيب المعاناة.

بدأ كل لقاء منها بهذا السؤال:

أتعرفني؟

لئن تغيرت الوجوه والأشكال ، إن الأصوات باقية على عهدها القديم.. أنين الناي لم يتغير وصوت انهمار المطر مثلما كان.

تزداد شهقة الفرحة من لقاء إلى آخر ، ويكبر معها هذا السؤال الطفولي البريء: أيعقل هذا؟ أفي يومٍ واحدٍ يتوالى عبق التأريخ مفعماً بشذا الوداد؟

من محمد بن الحاج حسون البقال إلى علاّوي بن مرزا الگهوجي إلى حبيب الهندي.. آخر وجه في طابور الأحبة!

قصدت مذخر أدوية للقاء صديق. يقع المذخر في شارع عام. كان بابه مغلقاً ، توالت طرقاتي الباب ، ولم يرد عليّ أحد ، فاتصلت بصديقي صاحب المذخر بوساطة (الموبايل) ولم أتلق رداً أيضاً.

على يمين المذخر دور سكنية. عند الدار الثانية جلس رجل مسن على كرسي. نظر إليّ قائلاً:

تفضل! أمر.. خدمة؟

- شكراً! أسأل عن الأستاذ سعد.

- إنهم يُجرون جرد نهاية السنة ، والبيع متوقف.

- لا حاجة لي بالأدوية ، أريد لقاء الأستاذ سعد لأمر آخر.

- انتظر رجاءً.. سأناديه.

قام من مجلسه ، فبدا فارع الطول مهيباً. اقترب مني ، وهو يمشي بتثاقل. أسمر البشرة ، يرتدي دشداشة ، مضى عليها زمن طويل منذ فارقت يد الخياط ، يكسو الشيب رأسه ووجهه.

توجهت نحوه خطوات ، ممتناً شاكراً ، وبدأته بالتحية ، فنظر إليّ ملياً ، وسألني بصرامة:

عرفتني؟

تباطأت في الإجابة ، ثم قلت محرجاً ، وبصوت خافت:

وكيف لا أعرفك؟!

فسألني بعناد:

من أنا؟

ثم استعاد وجهه سكينة الشيوخ ، فقال ضاحكاً ، وهو يحتضنني:

أبو ستوري! أنت ما تزال شاباً ، أما أنا فقد(بيّن عليّ الكُبُر) وصرت كما ترى. أنا حبيب فاضل.

على الرغم من طول قامتي ، كنتُ مثل مَن يقف في ظل جبل شامخ.

- لستَ حبيب فاضل... أنت حبيبي!

- ما تزال رقيقاً ، وما يزال لسانك يقطر عسلاً.. رحمَ الله ذلك الزمن! ما أحلاه!

واحتضنني ثانية ، وهو يقول:

دعني(أشبع) منك قُبَلاً..

ثم أكمل ، وهو يضحك:

إن عندي (جوعاً) قديماً للقُبل ، وليس متاحاً لي إلا أطياف من الماضي ، إلا بعض أطياف الماضي لتسكت هذا الجوع.

- ها أنت ذا حبيب الذي أعرفه ، فكيف تدّعي (أن الكبرُ بيّن عليك)؟ لا يطالب بالقُبَل إلا الشباب!

- كم سنة مضت منذ آخر لقاء لنا؟ قرأت عبارة كُتبتّ على حاجز كونكريتي عند تلك السيطرة العسكرية ، أثارت شجوني ، على الرغم من كونها مضحكة. عبارة كُتبتّ بخط رديء ، ولكنها متحدية ، إذ تقول: (سنقرض الإرهاب كما انقرض الديناصور)! لقد جسّدت هذه العبارة أمامي شريط حياتي ، فصرت أحس أني موجود على هذه الأرض منذ عصر الديناصورات. إني أحس الآن بغربة ، مثل غربة ديناصور اجتاز حاجز الزمن ، وحط رحاله في عصرنا الحاضر البائس هذا.

- لعل عصر الديناصورات أرحم من عصرنا هذا ، إذ لم تكن كلها من آكلات اللحوم.

- لقد نزلتَ(عليّ من السما) ، ولن أدعك تذهب بسهولة. يبدو أن الأستاذ سعد غير موجود ، فهيا إلى البيت ، لقد حلّ موعد الغداء!

- لن أشعر بالأمان ، وأنا أجلس بالقرب من ديناصور جائع.

رجوته أن نجلس في حديقة الدار ، ولكنه أصرّ على أن نجلس في غرفة الاستقبال. ولقد أبدى من الترحيب شيئاً مؤثراً ، يليق بشخصه ويعبِّر عن شمائله الحلوة.

في ترحيبه فرح طفولي وأريحية نشوى وطيبة عفوية. أحاطني بكرم وضيافة فيها من الطيبة والحنان والحنين أقدار هائلة.

سألني عن الأولاد وأسمائهم وتحصيلهم الدراسي ، فسألته:

وأنت؟ كم عندك منهم؟

- ثلاث بنات وولد واحد ، هو آخر العنقود!... سامية ووجدان ونائلة وسامي.

- الله يحفظهم! سامية.. وسامي؟ ألم تنسها؟

رمقني بمودة وعتاب ، ثم قال:

(أنساك؟.. يا سلام! أنساك؟... ده كلام؟!)

رحم الله أم كلثوم! ورحم كاتب هذه الكلمات! لقد أثَّرَتْ هي ومؤلفو أغنياتها وجدان المحبين ، وتركوا معجماً غنياً بأرقى المفردات وأنقى العواطف.

- أنت حقاً كما قلتَ.. أنت من بقايا عصر الديناصورات ، فلا

أظن أن أحداً في أيامنا هذه يتعاطى هذه اللغة.

- أتدري؟ إن أكثرَ أعضاء جسدي فاعلية وعطاءً الآن عيناي. إني أبكي يومياً ، ولأوقات طويلة. وإن أكثر أجزاء جسدي نظافة خدّاي ، لأن دموعي تغسلهما مرات عدة يومياً.

- من أين لك هذا الكلام المبكي يا أبا سامية؟! والله لو كنتُ امرأة لأغرمت بك فوراً!

- والله العظيم لم أسمعه من أحد ، ولم أقرأه في كتاب!

- ماذا ستقول سامية الهندية لو سمعته؟

- سمعتْهُ ولم تقل شيئاً ، لقد اكتفت بابتسامة ، ولكنّ ابنتها قالت شيئاً مؤثراً ، هزني هزاً.

- ابنتها؟ أيعني هذا أنك التقيتها؟

- بلى.. لقد التقيتها مصادفة منذ سبع سنين ، وكانت بصحبتها شابة تشبهها شبهاً عجيباً. قدمتها إليّ قائلة: ابنتي نوال ، وقدمتني إليها مبتسمة ، وهي تقول: حبيبي حبيب!

مرادفات الفعل (ارتعش) كلها ، مثل (اهتز) و (ارتجف) لا تستطيع التعبير عما اعتراني.

- وحدثتها عن فاعلية عينيك ونظافة خديك؟

- وعن أشياء أخرى كثيرة... عن خزين هائل من الأشواق.

- وماذا قالت؟

- اكتفت بالابتسامة.

- وابنتها؟ ماذا قالت ابنتها؟

- قالت لها: (لو كان في حياتي مثل هذا الشاب لأفنيتها حرصاً عليه).

لا أدري.. هل تستر ارتعاشات الأيدي ووجيب القلوب والشوق المتفجر في العيون الشيب؛ وتمحو التجاعيد من على الأيدي والوجوه؟

أيصبح العكاز حين نحب رمحاً في يد فارس؟ وصفتني بـ (الشاب) وقد جاوزت الخامسة والخمسين.

* * *

حبيب فاضل زميل الدراسة الجامعية، واحد من الزملاء المميزين، القريبين من النفس، الذين احتلوا من الوجدان موقع الصدارة.

هو واحد من مجموعة من المعدمين الذين كان كل واحد منهم يتأسى بمعاناة الآخر؛ ويجعلها حافزاً لديمومة الكفاح ومواصلته سعياً وراء أمل في يوم فرج منتظر.. التعيين في وظيفة حكومية، يمكّنه راتبها من الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن دعم الأهل المتعبين ودفع أجور الدراسة المسائية بلا عناء.

مجموعة شقّتِ طريقها في الحياة بصعوبة بالغة، وكان أفرادها على الرغم من كل هذا يسدلون على معاناتهم؛ وهم يدرسون أستاراً ثقيلة ويستضيئون بنور الأمل في ظلمة الطريق الموحش.

من فضائلهم الاجتهاد الصادق والأمل الذي لا يخبو بريقه والمرح

اللطيف. لم ينحدر مرح أي منهم إلى العبث يوماً.

تدور حواراتهم في دنيا الشعر وعالم القصص والروايات. أخذت أحاديث حبيب عن العلاقات العاطفية بين أبطال الروايات والقصص تكتسي ظلالاً من الواقعية ، وتشي بتجربة ذاتية ، تخالط تجارب أولئك الأبطال وتحاول أن تكتسحها ، فتحتل مركز الصدارة في الحضور.

لاشك في أنه يحب ، ولعل لتلك الفتاة السمراء من المرحلة التي تلي مرحلتنا صلة بما طرأ عليه.

قال يوماً:

أعجبني بيت من الشعر يقول:

تعجبني فيكِ العيونْ وصدركِ الخارج عن القانونْ

فرد عليه زميلنا عبد الرحمن علي:

يعجبني فيكَ الجنونْ وطولكَ الخارج عن القانونْ

كان حبيب يتلقى معاكسات عبد الرحمن ومداعباته برضا وتسامح. قد تبدو عليه أحياناً دلائل غضب ، وربما قاطعة ، ولكن القطيعة لم تكن لتدوم طويلاً ، في ظل مبادرات الأصدقاء وخفة ظل عبد الرحمن وسماحة حبيب.

استدان عبد الرحمن من حبيب يوماً ديناراً ليسدد ثمن كتابٍ ،

رغب في شرائه ، فأعطاه الدينار بطيبة خاطر ، فلهج عبد الرحمن بشكره بأسلوبه المتأنق الرشيق ، قائلاً:

إن أحد أسباب إعجابي بك أنك تشبه مصارعي الثيران الإسبان رشاقةً ووسامةً وطولَ قامة!

وحين تأخر في السداد طالبه بالدينار فأخذ يماطل ، فضيق عليه الخناق وألحّ في المطالبة ، فقال له عبد الرحمن:

لم أعد أرى من لوحة مصارعة الثيران التي تذكّرني بها إلا شيئاً واحداً ؛ هو هذا الثور الواقف أمامي الآن.

بدأ الزملاء يرصدون التغيرات التي تطرأ عليه حين يراها.. ارتباكه ، تلعثمه ، نظراته التي تتابعها بشغف ، دقته في اختيار ألفاظه حين تكون قريبة.. مؤشرات تنبيء بأن بذرةَ حبٍ ، بدأتْ نواةُ الحياة فيها تتهيأ لترى النور.

واعتدنا سماعه ، وهو يردد مرات كثيرة:

سمراء يا حلم الطفوله يا منية النفس العليله

وكان يبتسم حين يحرّف عبد الرحمن الشطر الثاني من البيت قائلاً:

يا منية النفس (الطويله)

فاتنة لا يستأذن طيفها عند اقتحام أي قلب ، ولا تستعصي عليه الهيمنة على أي وجدان.

لوّنتْ سمرتُها وجهاً ، أبدع الخالق صُنعَه وجسداً ، تتمنى

الأغصانُ شيئاً من رشاقته ولينه. وكانت تبلغُ ذُرا الفتنة حين تبتسم ، وقلّما فارقت الابتسامة وجهها.

وبسبب سمرتها لقّبها الزملاء بـ(سامية الهندية).

* *

عشعشت سامية في قلب حبيب وهيمنت على روحه ، فقادتها بيسر في دروب الهوى ، تارة تدفعها إلى أعماق براكين اللوعة ، وحيناً تحلق معها نحو سماوات الهناء.

ومثل نشرة الأخبار اليومية ، راحت نفثات روحه العاشقة الملتاعة تصل إلى أسماعنا كل يوم.

انتهى العام الدراسي وحبيب لم يتقدم خطوة واحدة. وبنهاية العام استقرت روحه في أعماق براكين اللوعة.

وبدأ العام الدراسي الجديد والتقينا ، وخلال الأحاديث المعهودة كان ذهنه شارداً وعيناه تجوسان الآفاق بحثاً عنها. ولم تظهر إلا في اليوم الثالث لبدء الدوام.

غادر النادي واتجه نحو قاعة الدرس ، الكائنة في الطابق الأول من البناية ، فرآها تنزل في السلّم ، فتسمّر في مكانه ، وهي ما تزال تنزل. وتساقطت الكتب التي يحملها من يده واحداً تلو الآخر ، كأنها أوراق يابسة تتساقط من شجرة بتأثير رياح الخريف ، وظل مسمّراً في مكانه ، فوقفتِ أمامه ثم انحنتِ إلى الأرض لتلتقط الكتب ؛ وعيناه ترافقان حركاتها ، لتستقرا عند خصلات الشعر الفاحم

الكثيفة التي تهدلت قريباً من الأرض.

أعادتْ إليه الكتب باسمةً ، ولكنها لم تُعِدْ إليه وعيه ولا قلبه الذي سبق الكتب في السقوط.

لم يقل (شكراً) ، ولكنه قال بعتاب:

ثلاثة أيام فوق أيام العطلة ، أليس هذا كثيراً؟!

وبابتسامة ودهشة قالت:

نعم!

- اعذريني! إني أثرثر.. ألم تقرئي (ثرثرة فوق النيل)؟

ومن خلال ابتسامتها قالت:

ولكنهم ثرثروا تحت تأثير الحشيشة ، فما بالك أنت؟

ولم يجد جواباً مناسباً ، وكانت سترضى بأي شيء يقوله ، المهم أن يفتح فاه ، أو يحرك شفتيه.

واحتل اسماهما مكاناً في قائمة المحبين.

ويومذاك ، حين قصّ علينا حبيب تفاصيل ما جرى ، وذكر (الثرثرة) سأله عبد الرحمن بغضب مصطنع:

لماذا لم تحتجّ وتقل لها بكبرياء: أنا لا أدخن الحشيشة ، بل آكل (الحشيش).

* *

أتاحت لنا تقنيات السينما الحديثة مشاهدة التحولات الجسمانية لشخوص كثر ، أشكال تتبدل ، فيتغير معها السلوك والمزاج. شيء

من ذلك التغيير طرأ على حبيب.. تغيير يكاد يكون جبل جليد ، عُشره فوق سطح الماء وتسعة أعشاره تحته. تغيير بسيط في الهندام ، بحسب ما تسمح به الإمكانات المادية المتواضعة ، لكنه كان في الداخل شاملاً.

تفجرت ينابيع الجمال دفاقة في أعماقه ، واكتظت ضفافها بألوان الورود. كان حبيب قبل أن يعرفها يردد أبياتاً من الشعر.. يحفظ نصوص الشعر التي نُطالَبُ بحفظها في مادة الأدب حفظاً آلياً. يحدث أحياناً أن يتغنى بالرائع منها ، ولكن هذا كان يحدث في دنيا حبيب طالب العلم ، أما بعد أن عرفها فقد أخذ ينشد الشعر ، يسعى إلى حدائقه الرائعة الجمال ، فيجمع من أزهارها باقات جميلة ، يهديها إليها.. لم يقوَ على نظم الشعر ، ولكنه كان ينشده باقتدار.

مثل طائر العنقاء الذي كان يحترق في ألسنة اللهيب ، ليولد من جديد ، ذابت خلايا حبيب طالب العلم في نيران حبها ، فوُلِدَ منشدٌ رائع للشعر.

صارَ واحداً من فرسان مهرجانات الشعر ، ولكنه ظل بعيداً عن حومة الوغى ، راضياً بابتسامتها وساماً يشهد له بالاقتدار.

كان يوماً عريف حفل في أحد المهرجانات الشعرية في الكلية ، فقدّم واحداً من زملائنا الشعراء المبدعين تقديماً رائعاً. اعتلى الشاعر المنصة ونجح في إلهاب حماسة الحضور.

في ذلك الزمن ، وفي تلك المرحلة من العمر لم يكن يستهوينا

شيء مثل الغزل. تغزل زميلنا فاستجابت النفوس ودوّى التصفيق. لقد طالب محبوبته بأن تقابل وفاءه بالوفاء وفناءه بالفناء ودوامه على حبها بدوام مثله.

وحين انتهى من إلقاء قصيدته اعتلى حبيب المنصة ، فأثنى على شاعريته ، ثم قال:

ليس لأحد أن يستكثر على زميلنا ما قال فكل هذا من حقه ؛ ولكنني أعرف محباً آخر يرضى بالقليل ، هو الذي يقول:

أحبيني بلا عُقدِ

أحبيني لأيام لساعاتٍ

فلست أنا الذي

يهتم بالأبد

نال قوله استحساناً وإعجاباً كبيرين. صفّق كثير من الحضور ، ومثَّلَت الزميلات النسبة الأكبر بين المصفقين.

التفتت كثيرات إلى سامية ، وهن يصفقن مبتسمات ، فابتسمت هي الأخرى. ولقد صارت ابتسامتها في تلك الأمسية وساماً وأنواطاً كثيرة زينت صدره.

تخرجنا في الجامعة ، وحبيب لمّا يزل ينشد الشعر. ولم ندرِ أطال زمن إنشاده ذاك أم قَصُر.

* *

- ماذا عن ذلك اللقاء الذي تم مصادفةً؟

لم يجبني ، ولكنّ غيوماً من حزن تكاثفت فوق بحور عينيه. لم يكن سريع الانفعال هكذا. لم يكن سخيّ الدمع كما هو الآن.

ثم قال بصوت مخنوق:

لقد قلت كل ما عندي.

- إذن لقد أسهَبْتَ في الحديث عن خزينك!

- الحقيقة أني أسرفتُ.

- وكل هذا الإسهاب أو الإسراف جرى وأنتم واقفون؟ ألم تدعهما إلى مطعم أو مقهى؟

- مشكلتي الكبرى هي أني ساذج مولع بالمثاليات ، ولا أعير الأمور الشكلية البسيطة التفاتاً ، على الرغم من أهميتها. أتدري أنها هي التي دعتني إلى مقهى كنا نقف إلى جواره! مقهى حديث أنيق ، أقف إلى جواره مدة تقرب من نصف ساعة دون أن أتنبّه عليه!

- أنت معذور!

- أنا كما وصفني عبد الرحمن علي رحمه الله! لا أدخن الحشيشة ، ولكن آكل الحشيش.

- حاشاك! ألم تستثمر تلك الفرصة الرائعة التي سنحت على غير انتظار؟

- ليتها لم تسنح ، وظلت سامية طيفاً ، لا أراه إلا في الأحلام!

- لماذا؟ ما الذي جرى؟

- أمور عدة ، منها أني لم أحسب حساباً لكلماتي ، فجاء بعضها مشوشاً ، مغالياً ، مسرفاً فلم يشفع له صدقه ، ومنها إحساسي بفتورها ، على الرغم من ابتسامتها.

- كيف؟

- أنت أخي ، لذا سأخبرك بكل شيء بدون تزويق.

* *

جلسوا حول منضدة في المقهى ، فوضعتا أكياس السلع التي تحملانها على أحد الكراسي ؛ ونوال ما تزال تنظر إليه بانبهار ، بينما روحه ما تزال هائمة في آفاق الماضي البعيد ، وهو يواصل الشدو وسامية لا تكفّ عن الابتسام.

- لقد سمعتُ منكَ كل هذا سابقاً ، أما من شيء جديد؟

- أشعة الشمس هذه التي تغمرنا هي نفسها منذ ملايين السنين.

- منذ ملايين السنين وبعض الناس يعيشون في الأحلام ويسبحون في السراب.

- هل يمكنني الاتصال بك؟

ناولت ابنتها (الموبايل) قائلة:

سجلى الرقم.

وحين سجلتِ نوال الرقم سألت أمها:

ماذا أكتب أمامه؟

- حبيب فاضل.

أخذت نوال تكتب الاسم ، ثم قالت:

المجال لا يكفي.

- اكتبي: حبيب(فاء)

فأسرع حبيب ليقول:

بل حبيب (ع)!

سألته سامية:

ماذا يعني (ع)؟

- عليه السلام.

- أستغفر الله العظيم!

- لا أعني بها القدسية ، بل النهاية ، فلقد انتهى حبيب وقرؤوا عليه السلام.

* *

سألتُه:

ألم تكن محقة في استنكارها قولك؟ أليس فيه تماد أو كفر؟

- ومن أين يأتيه الكفر؟ لقد طهّرني حبها وجعلني نقياً نقاء الصالحين.

- هل اتصلتِ بك؟

- لا.

- لماذا إذن هذا الإصرار على حبها؟

- ليس الأمر بيدي. يبدو أنه قدري.

- فاتني منذ زمن بعيد أن أسألك عما حال بينك وبين الزواج منها.

- إنه السبب ذاته ، الذي جعل بعض الحضارات الأصيلة تنهار ، وهي في أوج عظمتها.. إنه القدر.

- وماذا لو عادت عجلة الزمن إلى الوراء؟

- هيهات.. لن تعود!

* * *

أبو جنان
ومرغريت ميتشل

مرّت ذكرى مرغريت ميتشل مروراً سريعاً في حكاية (السياسي) الممثل ؛ الذي تفوّق على أسرع العدَّائين في سعيه نحو المكاسب ؛ وذلك في حكاية (ركض مع الريح).

وها هي ذي إشارة أخرى إليها وردت في كتاب للأستاذ توفيق الحكيم ، عنوانه (فن الأدب) ، تحدث في مبحث منه عن كون الأدب هو التعبير الأعلى شأناً عن القيم الخالدة في الحياة. ولم تكن هذه الإشارة في صالحها ، على الرغم من إقراره أن روايتها (ذهب مع الريح) ذاعت ذيوعاً قلّ نظيره. إنه يرى أن النساء يصلحن- مدفوعات بطبعهن- لكتابة القصة (إلا إنه قلما تستطيع المرأة أن تكون ((أديبة)) ، أي كاتبة عميقة الثقافة ، قوية الذهن ، تتناول الإنسانية كلها بنظرة ناقدة ، وتحيط بمشكلات عصرها وتؤثر في زمنها).

هذا هو رأي الأستاذ توفيق الحكيم ، وهو لا يطلق الآراء جزافاً ، ولكنها وجهة نظر. وإن الذوق والمنطق يفرضان احترام آراء من هو أقل شأناً من الحكيم.

نظر إليها أستاذنا من زاوية افتقارها إلى عمق الثقافة ، وينظر إليها آخرون من زاوية ثرائها من الوضوح. ولعل هذا هو السبب في أن أجيالاً كثيرة ، في كل أرجاء العالم قرأت روايتها وأعادت قراءتها مرات.

خطرَ لي أن مرغريت ميتشل- على وفق المقاييس التقليدية- ليست محظوظة ، وربما كانت سيئة الحظ ، إذ قيل إن علاقتها بالكتاب بدأت عقب إصابتها ، حين دهستها سيارة فألزمتها الفراش. طال مكثها ، فأحضر لها زوجها عدداً كبيراً من القصص ، لتزجي بقراءتها أوقاتها ، فراحت تقرأ وتقرأ ، ثم كتبت رائعتها (ذهب مع الريح).

غادرت الفراش بعد مدة طويلة ، وبدأتِ تستعيد عافيتها. وحاولتِ العودة إلى الحياة خارج دارها ، فغادرت الدار لتصدمها سيارة أخرى فتودي بحياتها. ماتت مارغريت ميتشل ، ولكنها لم تذهب مع الريح ، بل بقيت خالدة في عالم الرواية.

الغريب في هاتين الحادثتين: الإصابة والوفاة أن الشوارع لم تكن في ذلك الوقت مزدحمة بالسيارات ، كما هي الآن. القدر إذن يجيد رسم المسارات وقيادة الناس والمخلوقات إلى مصائرهم.

مصير مرغريت والحادثتان غريبتا التزامن ، اللتان رسمتا تأريخها

الأدبي ونهايتها هو ما جعل ذكرى (أبي جنان) تنفض عنها ركام الأعوام الثلاثين. ثلاثون عاماً حافلة ، مزدحمة بالكفاح والعناء والصبر.. ثلاثون عاماً هي زهرة العمر. وشكراً وألف شكر أزجيها للأستاذ الكبير توفيق الحكيم لزراعته (زهرة العمر) في سماء الأدب ، في سمائه وليس على واحد من جانبي دربه ، لأن (زهرة العمر) مثل النجوم ، مكانها الأعالي!

التقيته في ألمانيا الغربية عام ١٩٨٢ ، حين أرسلتني الحكومة للعلاج ، بعد إصابتي في الحرب العراقية الإيرانية ، مع عدد من جرحى (معركة الراقم ١١٧٢) الشهيرة.

دخلت (مستشفى الجامعة) في اليوم الثالث لوصولي إلى العاصمة (بون). يبعد المستشفى عن العاصمة مسافة تقرب من عشرين كيلو متراً ، ويقع على ربوة عالية مزدانة بالأشجار. طبيعة رائعة ساحرة ، غطّت جمالها سُحُبُ الكآبة والغربة والحنين التي أحاطت بي.

خصّصتْ لي إدارة المستشفى في الطابق الأول من جناح الكسور سريراً في غرفة ؛ شغلها قبلي (أبو جنان) الذي رحب بي بجفاوة أبناء الريف وطيبتهم ودفء مشاعرهم.

تقاطر العراقيون الجرحى الذين شغلوا عدداً من غرف ذلك الطابق مرحبين. وراح عدد منهم يداعبونه ، متندّرين بضجة آثارها في يوم سابق في المستشفى ، متهماً الإدارة بالتقصير ، رافعاً شكوى إلى الملحقية العسكرية العراقية في بون. ولقد علمتُ من خلال

أحاديثهم أنه غادر المستشفى إلى الملحقية بـ (البيجاما والروب).

عند غروب شمس ذلك اليوم تكاثفت في داخلي غيوم الكآبة ، تتخللها بروق الحنين ، لتنهمر دموعي تصاحبها الشهقات رعداً ، يحكي لوعة الغربة.

قدّم إليّ أبو جنان علبة مناديل ورقية ، أمسكها بصعوبة بالغة ، وراح يواسيني بصوت متهدج ، ثم انهمرت دموعه ، هو الآخر ، وراح ينتحب قائلاً:

(يا جنَيّنَه يا بُويه!)

وظل يبكي مدة إلى أن (فاخَتِ رويحته)

أُصيبتِ يدي اليمنى إصابة شديدة ، أُجريَتِ لي على أثرها في بغداد عملية ترقيع للعظم ؛ ثم صدر أمر السفر بعد أربعة أشهر لاستكمال العلاج. أما أبو جنان فإن إصابته كانت شديدة جداً ، أدت إلى بتر إحدى يديه وتهشّم عظمي الساعد لليد الأخرى وسقوط في الكف. وضع الأطباء الألمان جهازاً معدنياً في الجبيرة الجبسية التي غطت يده ، ليمنع سقوط الكف. وبهذا صارت يده المصابة عاجزة وظيفياً.

صباح اليوم الثاني قدّم لنا عمال الخدمة في المستشفى طعام الإفطار. حاولتُ مساعدته على تناول الطعام ، فأخبرني أن أحد الممرضين يقوم بهذا يومياً.

جاء الممرض وراح يناوله الطعام بعناية ولطف ، وبدا في أثناء

ذلك محرجاً متضايقاً. وعندما حان موعد الغداء رجوته أن أقوم أنا بإطعامه هذه المرة ، وإنّ له أنْ يطلب مساعدة الممرض إذا لم يكن أدائي موفقاً ؛ فقال بحياء:

العفو.... سيدي!

طلبت منه ألاّ يقول (سيدي) مرة أخرى ، لأننا في عالم غير عالمنا.

أخذت أطعمه برقّة ، فأضع قطعاً صغيرة من الصمون (اللّوف) في فمه ؛ فأشار إلى الصمونة قائلاً:

(حِطها كِلها)

لقد أحسَّ أنه تحرر من قيد الخجل ، فأكل بشهية.

وحين أنهى طعامه قال:

(أفيّشْ!.. تَوْني شبعت.. رحم الله والديك! هسه انطيني جكَاره).

صباح اليوم التالي ، وبعد أن فرغ من تناول طعام الإفطار ، طلب مني أن أفتّ (لب الصمون) المتبقى فُتاتاً صغيرة.

وضع الفُتات في جيب (الروب) وتهيأ لمغادرة الغرفة. سألته عن حاجته إلى الفُتات ، ففتح شبّاك الغرفة وأشار إلى عش حمامة على شجرة قريبة من الشباك ، الذي يُطل على منظر أخاذ.

نثر أبو جنان الفتات قرب الشجرة ، وجلس ينتظر نزول الحمامة من عشها لتلتقطه.

شدّه إليّ أسلوب تعاملي معه ، واطمأن لي ، فروى أحداثاً كثيرة مرت به في قريته.

كان يسكن في قرية تابعة لناحية (أبو غرك) في محافظة بابل. فيه طيبة أبناء الأرياف وبساطتهم ، فضلاً عن مرح وروح دعابة ، جعلاه محبوباً من الجميع.. نزلاء المستشفى والعاملين فيه. يداعب العاملين في المستشفى جميعاً ذكوراً وإناثاً ، باستثناء الأطباء الذين كان يهابهم. يستخدم الإشارات في حديثه معهم ، إذ لم يكن يعرف من اللغة الإنكليزية إلا عدداً بسيطاً من المفردات ؛ لا تتعدى الحساب من الواحد إلى العشرة ، وصباح الخير ومساء الخير ، و(جيد) و(غير جيد) ، وكان يلفظها هكذا: (نوكود) ، و(زوجة) ، و(تزوجيني) التي تعلمها في المستشفى ، مستعيناً بزملائه الجرحى الذين كادوه ، فدسوّا له عدداً من المفردات البذيئة. أما اللغة الألمانية فكانت لنا جميعاً حلماً بعيد المنال.

دخل الغرفة مسروراً ، إذ التقطت الحمامة الفتات ، وعادت إلى عشها لتزق فرخيها.

أنبأني اهتمامه بالحمامة أني أجاور هاوياً ، يمكن أن يبدد شيئاً من قتمة الغربة ، فاستفززته عساه يبوح بشيء من خزينه ، ولقد فعل ، فكشف عن روح عاشق مرهف ، يهتز للجمال ولو كان وراء ألف حجاب.

حتى الطيور الهجينة الداجنة في الأرياف ، والتي يأنف الهواة في المدن من تربيتها كانت تثير في نفسه البهجة. المهم عنده أنها تطير. إنه يعرف مواصفات الطيور الأصيلة ، ولكنه يستثمر المتاح بقناعة

واندفاع كليين. ولقد قاد عواطفه نحو(المتاح) كون الأصيلات غاليات الثمن ، فضلاً عن أنها (نازكه وتنصاب بالعين بسرعة).

اقتنى مرة نوعاً ذا قيمة ، هو (نجفيات بعسلي).أحبها واندفع في حبه إياها. ولكي ينصرف إليها كلياً باع مجموعته ، وأخلى الساحة للنجفيات.

كثُرتِ وبلغ عددها اثني عشر طيراً..(ست زواج) ، تطرب النفس لمنظرها ، وهي تسرح بخيلاء في (الدِّشر) صباحاً. وضع (خرزة أم سبع عيون على البرج).

أصيب بالذعر حين علم أن مرضاً أخذ يصيب أسراب الهواة في القرية. لم يتوانَ لحظة ، فرَشَّ (البرج) وما حوله بمبيد قوي ، احترازاً من كون المرض بسبب من الحشرات. نثر طعام الطيور في أرض (البرج) وأبقى الطيور داخله خوفاً عليها من الأجواء المشكوك في نقائها. وحين تفقّدها ظهراً فوجيء بالكارثة.. تسعة من الطيور ملقاة على أرض(البرج) هامدة بلا حراك. أما الثلاثة الباقية فهي إلى الموت أقرب منها إلى الحياة ، يسيل من مناقيرها سائل أصفر كثيف القوام. لقد تسممت.

ضربة موجعة ، كاد أن يتهاوى تحت وطأتها. دفن الطيور الميتة ، ولم يدفن أحزانه. وتشبث بالأمل ، مثلما تشبثت الطيور المريضة بأذيال الحياة.

وشيئاً فشيئاً بدأت تستعيد عافيتها ، فأشرق الأمل في نفسه

وازداد سطوعاً. إن هذه الطيور الثلاثة يمكن أن تكون نواة لسرب جديد ؛ إذا أبعدها عن موطن الخطر ، فأودعها عند صديق يثق به ، يسكن في قرية أخرى ، مفضلاً مكابدة الشوق إليها على خوفه عليها.

أخذ شوقه يزداد ، وراح يراها في المنام ، وهي ترفرف حوله ، أو تقترب منه ، لتلتقط الحبوب من يده. ولم يتصل بصديقه ليسأله عنها خشية إزعاجه.

بعد مضي شهر جاءه صديقه زائراً ، فهبّ لاستقباله بلهفة. وبعد سؤاله إياه عن أحواله سأله عن الطيور ، فنكس الزائر رأسه ، وأخبره أنها ماتت. ولقد جاء بها إليه في كيس من أكياس الحنطة ليراها بنفسه.

لقد أكلتِ حنطة مسمومة (مُعفّرة) فماتت.

رويت له قصة إصابة مرغريت ميتشل ووفاتها ، أملاً في أنْ أستلَّ من نفسه شيئاً من الحزن الذي رأيته في عينيه ، وهو يتذكر (النجفيات بعسلي).

ولم يختلف أسلوبه في التعامل مع النساء عن أسلوبه في التعامل مع الطيور ؛ علماً أن أغلب النسوة في ألمانيا كنَّ يشبهن (النجفيات بعسلي) ، قلة منهن يشبهن (الشِّعل) الهجينات.

أكثر النساء قرباً منا ، ونحن في المستشفى هن الممرضات وعاملات الخدمة والتنظيف. وكنّ يداعبنه لما وجَدْنَ فيه من طيبة

ومرح. ولقد عرض على الكثيرات منهم الزواج ، حتى رئيسة الممرضات الأثيوبية ، التي تبلغ من العمر ستين عاماً تلقت منه عرضاً ، وإن لم يكن بالحماسة التي ترافق عروضه الأخرى.

كان يستعين بي حين يحاول إغراءهن بالحديث عن فخامة (النيشان) وارتفاع مقدار (الحاضر والغايب).

في أيام العطل يخيّم الهدوء على المستشفى ، ولا يبقى من العاملين فيه إلا الخفراء.

دخلت اثنتان من الممرضات الخافرات الغرفة صباحاً ، لترتيب الأسِرَّة وزرقنا (الأبر). وراحتا تلاطفانه ، فطلب مني أن أسألهما عن رقصة أعجبته ، رأى كثيرين يرقصونها بحماسة في أحد النوادي. وأخذ يرقص تلك الرقصة أمامهما لايضاح الفكرة.

تدعى هذه الرقصة (البجعة المريضة) ، ولقد وصفها الألمان أنفسهم في الثمانينات بالوباء الذي اجتاح ألمانيا. وهي التي نسمع موسيقاها عندنا في أعياد رأس السنة الميلادية.

أبدت إحداهما استعدادهما لتعليمه أصول هذه الرقصة إذا علمها الرقص الشرقي.

وحين أخبرته بطلبها قال فوراً:

(دِك)

وراح يتثنى عارضاً أبشع صورة للرقص الشرقي ، ولكنهما رضيتا ، ووفتا بوعدهما ، فرقصتا بحماسة وانسجام تامين ، مطمئنتين

لأن رئيسة الممرضات ليست موجودة.

كان صباحاً مشرقاً ، تمتعنا فيه بعرض فني راقٍ ، لم يكدر روعته إلا أداء أبي جنان.

هو ضابط صف (رئيس عرفاء سرية) ، اسمه رحيم. أخذ الأصدقاء في المستشفى ينادونه (ارْحَيِّم) بالتصغير تحبباً. متوسط القامة ، نحيف البنية ، سريع الحركة. روى لي قصة إصابته ، وهو يبتسم.

صدر أمر حركات للفوج الذي ينتسب إليه ، وكان مقره في القاطع الشمالي ، فراح آمرو السرايا يهيئون سراياهم للحركة. أبدى أبو جنان همة عالية في تهيئة عرفاء الفصائل والمراتب ، والإشراف على تفتيش الأسلحة والأعتدة وأرزاق الطوارئ. وحين اطمأن إلى استكمال استحضارات المعركة راح يثير حماسة المراتب ونخوتهم ؛ فأطلق أهزوجة ، يُشَبِّه فيها فرحة المقاتلين ، وهم يذهبون إلى جبهات القتال بفرحة استقبال العيد ، فقال: (ودّونه للجبهة أنعيّدْ)

رددت الوديان أصداء أصوات المقاتلين المبتهجين ، ورئيس عرفاء السرية يلوّح ببندقيته بينهم على طريقة أهل الأرياف ؛ وآمر السرية يراقبهم ، وينظر إلى ساعته اليدوية من حين لآخر ؛ للبدء بالحركة بحسب التوقيت المقرر.

تحرك الفوج والأهازيج متواصلة ، ووصل إلى هدفه ليلاً. كُلِّفَتْ السرية التي ينتسب إليها أبو جنان بالانتشار في أحد الرواقم ، استعداداً لبدء الهجوم ضمن قوة الفوج. تعذّر على الجنود حفر

خنادق في الأرض الصخرية ، فشرعوا في عمل سائر صخري مستدير في قمة الراقم واستقروا وسطه.

أحسّت مراصد العدو بحركة الفوج. وعند منتصف الليل بدأ القصف المعادي. كان أبو جنان قد توسّد بطانية وتغطى بأخرى ليستريح ، بعد الجهد الذي بذله. اضطجع على ظهره و (خالف) يديه على جبهته ، في وضع يتيح له الاستلذاذ بأحلام ، تنتشله من عناء جبهات القتال ، وما أشدّه!

أحسّ بلذعة حادة في يديه ، ثم دوّى صوت انفجار ، تلته أصوات أخرى وصخب ، أخذ يعلو.

جرى إخلاؤه إلى وحدة الميدان الطبية ، ثم إلى مستشفى السليمانية العسكري ، حيث بُتِرَتْ يده.

زاره آمر السرية ليطمئن عليه ، فانحنى عليه ليقبّله ، وهو يقول ضاحكاً:

(ها ابن الـ... ! خوش عيديه حَصَّلِتْ؟)

مشيراً إلى أهزوجته:

(ودّونه للجبهة أنعيّد)

* * *

أرواح سامية

وكأن قوى غامضة سحرية قد تسللت إلى يد أبي جنان المعوقة ، فجعلتها مثل يد هرقل ، فأزاحت ركام زمن طويل عن أرواح سامية نبيلة ، مخبوءة في طيات الذاكرة التي لاحت عليها علامات الشيخوخة.

وجوه مثل كثير من الوجوه التي نصادفها يومياً ، ولكنها واجهات لأرواح قوامها النقاء والصدق والعطاء.

بريجيت فوكن

واحدة من هذه الأرواح. هي مسؤولة قسم العلاج الطبيعي في مستشفى الجامعة. ترافق رئيس الجراحين البروفسور (روسلر) الذي اعتاد أن يزور مرضاه مرتين في الأسبوع متفقداً ، وبصحبته مساعداه البروفسور (هوفمان) والدكتور صالح ، العربي الفلسطيني.

شقراء في الأربعين من عمرها ، فارعة القامة ، أقرب إلى عالم الأمومة. يغلب عليها الجد والالتزام في طريقة كلامها وتصرفاتها وملبسها. وكانت تزورنا مرتين أخريين أسبوعياً ، ومعها واحد أو

اثنان من موظفي القسم ، للإشراف على تنفيذ برنامج العلاج الطبيعي.

رجاني أحد موظفي القسم لمرافقته إلى قاعة العلاج ، أملاً في حل مشكلة ، تواجهها إحدى المعالجات مع واحد من جرحانا.

فقد هذا الجريح بصره بسبب إصابته ، كذلك فقَدَ إحدى ساقيه ، فركِّبت له ساق صناعية ، وأُعِدَّ له برنامج تأهيلي للتدريب على استخدامها. اعتادت المعالِجة أنْ تحتضنه من خلف ظهره وتضع يديها تحت إبطيه ، ثم تطلب منه المسير ، ومن هنا ثارت المشكلة ، لأنه كان يرمي بثقله عليها في أثناء مسيره ، مما أثار شكوكاً في صلاحية الساق الصناعية. وجّهوا إليّ استفسارات عِدّة ، طالبين أن أنقلها إليه. ولقد أجاب زميلنا عن الاستفسارات بوضوح وصدق وعدم مماطلة ، فأخبرني أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تتيح له أن يلامس جسد المعالجة آمناً من الرفض ، فنبّهتُهُ محذراً من أنهم سيعيدونه إلى العراق لإكمال علاجه إذا لم يستفدْ من البرنامج التأهيلي ؛ واعتذرتُ من المعالجة الحسناء بلباقة ، اهتزّتْ لها طرباً وحفّزتها على بذل مزيد من العناية به ، إذ أخبرتُها باعترافه بأنه يثمل بسبب شذا عطرها وبأن رأسه يدور حين يسمع صوتها الرخيم ، فضحكت قائلة:

إن بانتظاره جائزة أكثر قيمة من هذا حين ينجح في التدريب.

ولقد دعتني إلى شرب قدح من القهوة في مكتب صغير ملحق بقاعة العلاج. شاركنا الجلسة زميلها المعالج وبريجيت فوكن التي لم

تتغير عما هي عليه حين ترافق البروفسور روسلر وقاراً ورصانة.

غسلتُ قدح القهوة بعد أن فرغت من شربها- وهذا ليس من عاداتي- فضحك المعالج الشاب وقال:

لا تُفْرِطْ في تدليل النساء.

فردّتْ عليه بريجيت بكلام بالألمانية ، فقال لي مبتسماً:

تقول السيدة فوكن تعلموا منه الرقة في التعامل مع النساء.

سرّني ثناؤها الذي صار فاتحة لصداقة رائعة.

خصّتني باهتمام وعناية. ولقد صادفتها مرة في الضاحية القريبة من المستشفى بعد انتهاء الدوام الرسمي ، وهي تقود سيارتها ، فدعتني إلى جولة في المناطق القريبة. وبعدها وجهتْ إليّ دعوة إلى زيارتها في البيت ، وكان في مدينة صغيرة تبعد عن العاصمة ثلاثين كيلو متراً ، وأخبرتني أنها ستمر بي لتقلني ، على أن نلتقي خارج العاصمة ، لأنها لا تريد أن يراها أحد برفقة رجل غريب ، لكون عائلتها من النبلاء الذين لهم تقاليد تميزهم.

استقبلتني والدتها ، فقدّمتُ لها الهدية التي أعددتُها للزيارة ، فقالت لبريجيت عبارة بالألمانية ، ترجمتْها إليّ ، وهي:

حقاً إنه ذو لياقة كما وصفته!

أحسَسْتُ في أثناء الزيارة بدفء الجو الأُسَرِيّ الذي افتقدته. لم أشعر أني غريب ، أو إنسان بسيط ، يجلس إلى أُناس ينحدرون من سلالة نبلاء.

قالت:

تعجبني فيك أشياء كثيرة ، أولها الصدق ، إذ لم تتستر على سبب إصابتك. قال أغلب جرحاكم إن سبب الإصابة هو حادث سيارة ؛ وأمعن بعضهم في السخرية فقال حادث دراجة هوائية ؛ أما أنت فقلت بوضوح إنها جرح بسبب الحرب.

- فعلوا ذلك حرصاً على سمعة الوطن.
- سمعة الأوطان لا تُبْنى على الكذب.

وكنا قد تلقينا تعليمات قبل السفر بالتعتيم على الأسباب الحقيقية للإصابات.

وقالت:

لماذا لم تقرؤوا التأريخ ، وأنتم أمة عريقة الحضارة؟! ألم تتعظوا مما حدث لألمانيا؟ ظل الألمان ، حتى أبناء هذا الجيل يدفعون لإسرائيل ثمن حماقات هتلر. ثم رفعتْ كأسها ، وهي تقول مبتسمة:

هيا ارفع كأسك ، فأنا وأنت لن نستطيع أن نغيّر العالم!

سألتني عن انطباعات المرضى عن عدد من أطباء المستشفى ، ومنهم الدكتور(ديمللو) ، وهو ألماني يهودي. وحين أخبرتها أن المرضى يرتاحون للتعامل معه قالت:

إنه(دون جوان) ناجح ، ولكنه طبيب فاشل. وإياك أن تكون من زبائنه!

الدكتور (ديمللو) شاب وسيم ، ضاحك وساخر دائماً. لديه

استعداد لمغازلة أية امرأة يصادفها ، إلا بريجيت فوكن لصرامتها ومنزلتها لدى إدارة المستشفى وكبار أطبائها. أنشأ علاقات وطيدة مع عدد من الجرحى الذين يشبهونه في الميول ؛ وراح يزودهم بأعداد من مجلة (البلاي بوي) ومجلات أخرى مماثلة.

وأصدقاؤه هؤلاء هم الذين أشارتِ إليهم بريجيت بوصفهم (زبائنه).

أوصلتني بسيارتها إلى الفندق. توقفتِ عند مقهى يُطل على نهر (الراين) وقالت:

أود لو نكمل السهرة هنا ، ولكني سأتأخر وستقلق والدتي!

أخبرتني في اليوم التالي ضاحكة أن والدتها أخضعتها لاستجواب رقيق طويل ؛ اختتمته بقولها: احذري من سحر أهل الشرق!

تركتُ لها أن تختار المكان الذي سنسهر فيه خلال دعوتي إياها ؛ فاقترحتِ أن نمضي السهرة في مطعم ، يحظى بشهرة استثنائية لدى أوساط معينة من سكان (بون) والمناطق المجاورة ؛ ويقع في منطقة سياحية تدعى (الجبال السبعة). وحين سألتها عن سر شهرته وعدتني بالإجابة عندما أراه.

منظر ساحر ذلك الذي اجتزناه ، ونحن نصعد في طريق ملتوٍ عبر غابة كثيفة ، متجهين إلى المطعم. نسمات الهواء الباردة والمصابيح الكهربائية على جانبي الطريق ، التي تسربلت أنوارها بغلالات من

ضباب خفيف كثّفتِ شاعرية تلك اللحظات. توقفنا عند قلعة أثرية شاهقة في قمة جبل ، حيث المطعم الشهير.

منذ دخلنا القلعة عاد الزمن القهقري حقباً كثيرة ، ليحط رحاله عند القرون الوسطى. غرف وقاعات واسعة ، تفنن منسقو الديكور في تزيينها ، واللافت أن كلاً منها يغلب على كل ما فيها لون واحد. وكان مستوى الخدمة والضيافة يناسب المكان والأجواء. وأخيراً عرفتُ سرّ خصوصية المكان.

كانت القلعة ملكاً لنبيل ألماني ، شارك في واحدة من حملات الحروب الصليبية. وحين عاد إلى بلاده خافق القلب ، وقد طرّزت الجراح جسده تلقّى ضربة ، خلّفت جرحاً فاق تلك الجروح غوراً ، إذ وجد أن حبيبته التي خفّفَ طيفها أعباءَ غربته قد تزوجت ، فألقى بنفسه من أعلى القلعة إلى الوادي السحيق.

سألتها:

ماذا تقولين لو فعلتُ مثل ذلك النبيل وألقيتُ بنفسي إلى الوادي من أجلك؟

- ستتهمني حكومة بلادك بالعمل لصالح أعدائكم.

قبل موعد سفري حان موعد إجازتها السنوية ، فسافرتِ بصحبة والديها إلى شمال ألمانيا. ومن هناك اتصلتِ بي ، وكنت أسكن في أحد فنادق بون ، وفي أثناء الحديث قالت:

إذا سمعتَ أن امرأة ألمانية ألقت بنفسها من تلك القلعة إلى

الوادي بسبب نبيلٍ غريب أحبته ؛ فأعلم أنها بريجيت فوكن.

فاجأني قولها هذا وأطربني ، صحيح أن في مسيرتي معها محطات تمتاز بشيء من السخونة ، ولكن لم يخطر في بالي أن تلك السخونة ستصل إلى درجة الغليان ؛ فعلاقتي بها – كما كنت أظن- صداقة رائعة ، لم يطرأ عليها إلا انحرافات يسيرة ، زادتها روعة.

البروفسور هوفمان:

هو المساعد الأقدم للبروفسور روسلر ، اختصاصي في أمراض الدم. جمّ الأدب ، دقيق في عمله ، رقيق في سلوكه ، أنيق المظهر. وخَطَ الشيبُ لحيتَه الخفيفة. كانتْ بريجيت فوكن تذكره دائماً بإجلال وتوقير وإعجاب ، وقد أطلعتني على صورة قديمة ، تجمعها وإياه ، وكان شاباً حليق الوجه فاتناً.

أبدى للبروفسور روسلر قلقه بسبب حالة كفي الأيمن ، مقترحاً وضع مسند من الألمنيوم في الجبيرة ؛ ليساعد على رفعه ، فوافق الدكتور روسلر ، ووجّه بريجيت للإشراف على التنفيذ. وقد رجاه الدكتور هوفمان السماح له بمشاركتها العمل.

اصطحباني إلى ورشة (التجبيس) ، وحين وصلنا إليها فسحنا المجال لبريجيت لتسبقنا بالدخول فدخلت شاكرة ، فأشار إليّ لأتقدم فتراجعتُ شاكراً ، ولكنه أصرّ على دخولي قبله ، مردداً:

أنت ضيفي.

ولقد تولّى بنفسه تركيب المسند في الجبيرة الجبسية ، وراح يضبط أذرعه بعناية ومهارة. وكان ذلك من واجب الحِرَفيين المساعدين.

وحين ودعته عند سفري قال:

أتمنى أن أراك في ألمانيا مجدداً بوصفك سائحاً!

الدكتور صالح:

هو المساعد الثاني للبروفسور روسلر. عربي من فلسطين. شاب ذكي وطبيب كفوء. حريص وغيور على سمعة العرب.

شاركني بعد أن عاد أبو جنان إلى العراق الغرفةَ في المستشفى مريضٌ ألماني في الأربعين من العمر ، يعمل في مجال الصناعات الكهربائية. كان يشبه ممثلي السينما وسامة ورشاقة. لبق الحديث ، رفيع الذوق. وكانت زوجته تزوره عصر كل يوم. واعتدتُ ، حين تزوره أن أمكث قليلاً في الغرفة ، ريثما أقوم بواجب الضيافة ، ثم أتركهما لوحدهما.

سألني الرجل الألماني أسئلة كثيرة عن الواقع الصناعي في العراق ، وأبدى رغبته في إقامة مصالح مع الجهات الصناعية المختصة.

نُقلَ هذا الرجل إلى غرفة أخرى بعد أن أُجريتْ له عملية جراحية ؛ شاركَ فيها أحدَ الإخوة العرب السكنَ. ومما يؤسف له أن هذا الأخير كان جلفاً ، سوقيّ السلوك ، فثارت ثائرة الألماني ،

واستدعى الطبيب المسؤول عن الردهة ساخطاً.

روى لي الدكتور صالح الحدث قائلاً:

من حسن الحظ أن هذا الألماني التقاك أولاً ، فقد قال: أنا أعرف أن العرب ليسوا على هذه الصورة ، لأني شاركت واحداً منهم السكن ، وأستطيع أن أقول بثقة إنه (جنتلمان).

كان سنداً لكل المرضى العرب ، حانياً عليهم ، حريصاً على راحتهم. جمعتني به صداقة قوية. ولقد أحاطني بعناية فائقة في أثناء أزمة صحية ، ألّمت بي هناك.

تفاقم إحساسي بالغربة وشعوري بالحنين ، وقد مضت خمسة أشهر ، وأنا داخل المستشفى. وفي يوم عطلة ، والهدوء يخيم على الردهة أخذت أحسّ أني أدور في فراغ هائل ، ولفّني ضباب أبيض كثيف ، وخارتِ قواي ، فتمددتُ على السرير ، ووقر في ذهني أني سأودّع الحياة ، فردّدتُ الشهادتين.

كان إلى جانبي صديقان من الجرحى ، فسمعت واحداً منهما يقول للآخر بارتباك:

إنه (يتشاهد)!

وأسرع ليستدعي الطبيب.

ولم أعد أعي ما حولي ، ثم أفقتُ على صوت الدكتور صالح ، وهو يقول بحنان:

(شو).. خوفتني؟!

لم أقوَ على الكلام ، فأجهشتُ بالبكاء.

وتبين لي أن الطبيب الخافر قد أعطاني دواءً مهدئاً بعد فحصي ، وقام باستدعاء الدكتور صالح إلى المستشفى ، لأنه يعرف مدى علاقتي به.

قرر البروفسور روسلر أن أغادر المستشفى ، على أنّ أحضر يومياً لتلقّي العلاج وإجراء الفحص الطبي. فانتقلتُ للسكن في أحد الفنادق في بون. وكان الدكتور صالح مثالاً للوفاء والإخلاص في هذه الأزمة ؛ إذ لم ينقطع عن الاتصال بي وزيارتي. وقد اصطحبني لأكثر من مرة في سفرات سياحية خارج العاصمة ، ودعاني إلى شقته ، وحضرتِ الدعوة صديقته الألمانية ، إذ لم يكن متزوجاً.

اكتشفتُ في هذه المرحلة روحه المرحة وأريحيته. ولقد فاجأني بقوله:

الأطباء الألمان معجبون جداً بأسلوبك في التعامل مع النساء ، (علّمني خيو بدي كون متلك)!

فقلت له ضاحكاً:

لقد تعلمتُ هذا الأسلوب من أبي جنان والدكتور ديمللو.

ولقد ظللتُ أراسله مدة طويلة بعد عودتي إلى العراق.

المغيرة محمود سلمان:

عراقي مقيم في ألمانيا ، يعمل مترجماً في السفارة العراقية. هو ابن المرحوم العقيد محمود سلمان ، أحد أبطال ثورة مايس

التحررية عام ١٩٤١. كان في منتصف الأربعينات من العمر. متزوج من سيدة ألمانية ، ولكنه لم يستطع مواصلة الحياة معها ، فانفصل عنها وعاد إلى بغداد ، وتزوج من ابنة عمه ، ثم عاد بها معه إلى ألمانيا.

أنموذج رائع لطيبة القلب والصدق والوفاء والبراءة. كل ما فيه جميل ، وأجمل ما فيه ضحكته البريئة الطفولية. حين أتذكره أكاد أجزم أنه لم يعرف الحقد يوماً.

يعمل في السفارة العراقية في ألمانيا الغربية ثلاثة مترجمين ، المغيرة واحد منهم. أما الآخران فمكلفان بواجب الترجمة في الملحقية العسكرية ، التي هي من بين تشكيلات السفارة. ولم يرقَ أيّ منهما إلى مصافّ المغيرة أداءً وسلوكاً. أحدهما مقيم في ألمانيا أيضاً ، وهو مراوغ وقنّاص فرص ، من ذلك النمط الذي نسميه (كلاوچي) ، وكنتُ من بين المجموعة التي كُلِّفَ بواجب متابعة شؤونها في المستشفى. والآخر هو أحد موظفي السفارة ، حاصل على شهادة البكالوريوس في اللغة الألمانية. أكثر ما يجيد ترديده من اللغة الألمانية عبارة تدل على التعجب هي (آخ سو!) ، وعلى الرغم من هذا كان مغروراً إلى حد الصلف. ولقد اصطدم به الكثير من الجرحى العراقيين ، ولاسيما الضباط.

في اليوم السابق لموعد إجراء العملية أُجريتُ لي تحليلات طبية عِدّة ، ووُجِّهتُ إليّ أسئلة دقيقة كثيرة عن حالتي الصحية والأدوية

التي أتحسس منها. كل هذا يتطلب وجود المترجم ، الذي تخلَّف عن الحضور وتركني في موقف صعب جداً ، لولا وجود المغيرة. لقد خفَّف عني كثيراً من عناء تلك الساعات العصيبة ، المشحونة بالقلق والتوتر والترقب.

حين أَفَقْتُ بعد العملية وجدته إلى جانبي ، بين عدد من الإخوة العراقيين الجرحى ، الذين أحاطوا بالممرضة الحسناء المكلفة بالعناية بي. كان لابد من خضوعي لإشراف طبي دقيق بعد العملية لمدة أربع وعشرين ساعة ؛ خشية المضاعفات المحتملة. ولقد أوكَلَت الإدارة هذه المهمة إلى الممرضة الحسناء (إيرين).

لن أبخس الأصدقاءَ الذين ذكرتُهم حقوقَهم ، ولن أشكِّكَ في صدق نواياهم ، ولكنّ الناظر إلينا في تلك الساعة كان سيظن أن إيرين هي المريضة لا أنا.

غضب الملحق العسكري حين علم بإهمال مترجم الملحقية ، فزارني في اليوم الثالث بعد إجراء العملية ، مصطحباً ذلك المترجم ، وعنّفه أمامي بشّدةَ ، وأبدى اعتذاره عمّا حدث ، على الرغم من بساطة موقعي وحداثة رتبتي العسكرية حينها. وما كان ذلك منه إلاّ لالتزامه وخلقه النبيل وتربيته العسكرية الأصيلة. ولقد أثنيت أمامه على المغيرة لموقفه الطيب الأصيل ، فذكر أن الجميع يعرفون عنه مثل هذه المواقف.

غادر العراق مع عائلته ، وعمره خمس سنوات ، فارِّين من

مضايقات السلطة بعد فشل الانتفاضة ، لاجئين إلى تركيا. وفيها وصلتْ إليهم دعوة من المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، لزيارة السعودية والإقامة فيها ضيوفاً عند جلالته.

أقامتْ عائلته في السعودية زمناً ، ثم استأذنوا الملك بالسماح لهم بالمغادرة إلى ألمانيا ، فاستجاب وخصَّصَ لهم راتباً شهرياً. كانت عينا المغيرة تفيضان بالدمع ، وهو يتحدث عن موقف جلالة الملك.

على الرغم من نشأته الأوربية ظلَّتْ جذور العروبة حيّة في وجدانه ؛ ولقد عبّر عن أصالته أروع تعبير في سلوكه مع العراقيين الذين يزورون ألمانيا.

احتفينا به ، نحن صفوة أصدقائه من الجرحى حين زار بغداد ، ووجدناه كما عهدناه في ألمانيا ، يفيض بِشْراً ومحبة ، ويُشرق وجهه بابتسامته الحلوة التي تظللها (براءة الأطفال في عينيه).

گابي وشارلي

صار وقت فراغي كبيراً حين غادرت المستشفى وسكنت مدينة بون.

فندق صغير في واجهته مطعم كلاسيكي الأثاث ، يقع قبالة بيت قديم الطراز ، يصطف عند واجهته يومياً طابور من الزوار. إنه بيت الموسيقار (بتهوفن).

اعتدتُ أن أتناول وجبة الفطور في الفندق ، أما الغداء ففي الغالب أتناوله في المطعم المذكور ؛ وأنا أنظر إلى طابور الزائرين ، الذين كانوا من كبار السن من الجنسين.

أعجبني طعم الدجاج المشوي الذي يُعدّه المطعم ، فضلاً عن كونه الوجبة المضمون خلّوها من أي اختلاط محتمل بلحم الخنزير.. (الشفاين) كما يسمى بالألمانية.

ولتزجية الليل الطويل رحت أرتاد عدداً من المقاهي والنوادي الليلية القريبة.

إلى طاولة قريبة من طاولتي جلست فتاتان ، راحتْ إحداهما

تشـــير إليّ ، وهـــي تتحـــدث إلى صـــديقتها ، الـــتي نظـــرتْ إليّ وابتسـمتْ ، فرفعـتُ كأسـي محيّيـاً ، فرفعتـا كأسـيهما مبتسـمتين.
اقتربتْ مني الفتاةُ الثانية ، وقالت:
ألم تعرفني؟ أنا (گابي) خادمتك في المطعم.
أزعجتني لفظة (خادمتك) ، فقلت على الفور:
لستِ خادمتي ، بل (مليكتي)!
تفرستْ في وجهي مليّاً ، وكأنها تشكر لي إطراءها ، ثـم أشـارتْ إلى صديقتها ، وقالتْ:
(إيفا) زميلتي في العمل ، وهي تعرفك.
دعَوتُهما إلى طاولتي فاستجابتا شاكرتين. قالت گابي:
سـأترك بعـض الأغـراض علـى طاولتنـا ، لأننـا سـنعود إليهـا. سنشاركك الجلسة قليلاً ، ثم نعود.
- شكراً لقبولكما الدعوة.
بانبساط مرح انتقلتا إلى حيث كنت أجلس. ظللت واقفاً إلى أن جلستا. قالت گابي:
سـألتني إيفا قائلة: أليس ذاك الشاب الجالس وحيداً هو الشـرقي الـذي اعتـاد الجلـوس في الـركن المخصـص لـكِ؟ ولقـد سـررْتُ حقـاً لرؤيتكّ.
- هذا لطف منكمـا ، إذ أتحتمـا لي الفرصـة لأخـدمكما ، أو في الأقل لأؤدي واجب الضيافة ، ماذا تشربان؟

- بيرة.

راحت گابي تتحدث بلا كلفة ، وعيناها الصغيرتان ترسلان ، من خلف زجاج نظارتها بريقاً ، يوحي بذكائها وقوة شخصيتها ، بينما أخذتِ إيفا تعالج (كيس التتن) ، لتُعّدَ سيجارة ، فقدّمتُ لها واحدة قائلاً:

سيفخر الشيوخ في بلادي حين يعلمون أن لهم زميلة شابة في ألمانيا.

- (أكياس التبغ) هذه أقلّ كلفة من علب السجائر ، وهي أنسب لإمكانات الطلاب المادية.

كانت طالبة جامعية تدرس الاقتصاد ، وتعمل في أوقات العُطل ، لتوفر أجور الدراسة.

وضعتِ كيس التبغ على المنضدة ، وراحتِ تدخن السيجارة بانتشاء ، وهي تذكر معاناة الطلبة القادمين من الأرياف ، ثم قالت:

من حسن حظي أني ألتقيتُ گابي ، إذ انتشلتني من وحدة قاسية تُثقلُ عليّ.

قالت گابي مبتسمة:

مثلما انتشلني (شارلي) من وحدتي ، وأنا وسط عائلتي.

ثم التفتتِ إليّ:

إنه صديقي ، وهو طبيب كوبي. ونحن نسكن معاً في شقته. سيحضر بعد قليل ، هو وأخي (هانس) ، إنه ودود وذو صحبة طيبة.

ولكن قبل أن نغادر أود أن أسألك سؤالاً بسيطاً هو: لماذا تأكل الدجاج دائماً؟

- قبل أن أجيب عن سؤالك أود أن تعرفي أني سأكون سعيداً بلقاء شارلي وأخيك ، وسأدعوهما لمشاركتنا السهرة. أنتم جميعاً ضيوفي. أما الدجاج فإني مسلم ، وديننا يحرّم علينا أكل لحم الخنزير ، لذا فإن الدجاج هو الوجبة الأكثر تطميناً.

وتذكرتُ ابتسامة الدكتور روسلر ، وأنا أقدّم إليه هدية بمناسبة عيد ميلاده وهي (بطل ويسكي) وقوله: أرجو أن يغفر لك نبيّكَ هذه الخطيئة!

- لدينا أنواع كثيرة من اللحوم ، غير الخنزير ، وإذا سمحتَ لي فسأختار لك أنواعاً شهية منها.

- سأكون ممتنّاً.

ألحّ عليّ مقطع من أغنية لأم كلثوم يقول: (أنت فين والحب فين) ، وأنا أستعيد ذكريات ، تفيض بالحيوية وبراعة الأداء ، أيام كنت أجلس بين الأقارب أو الأصدقاء ، ونحن نحيط بـ (صواني الپاجة والهبيط الرشيدي ، والدليمية).

- نشكر لك ضيافتك. سنغادر الآن.

- أود صادقاً أن تبقيا ، أنا سعيد بوجودكما.

- سنصير أربعة ، ونحن لا نحب أن نثقل عليك.

- سعادتي تزداد كلما زاد عددكم.

جاء أخوها (هانس) أولاً ، وتعارفنا. سألَتْه گابي عن شارلي فأخبرها أنه سيتأخر قليلاً.

سألني هانس أسئلة بسيطة عن إصابتي وعن الحرب ، ثم راح يتحدث بإعجاب عن شارلي. وأتذكر جيداً أنه وصفه بقوله: (إنه زعيمنا)

في أثناء حديثه نهضتْ إيفا ، وراحت تُسَوّي قميصها الزهري فوق بنطلونها الأبيض ، فأمسك هانس بيدها ، وسألها:

إلى أين؟

- سأُحضِرُ أغراضنا التي تركناها على طاولتنا تلك.

تنبّهْتُ على رشاقتها وتناسق قوامها ، وجمال شعرها المنساب فوق ظهرها.

لابدّ أنّ وراء هذه (الميانة) شيئاً! ولقد كدّر الإحساس بوجود هذا (الشيء) صفو أمسيتي ، وراح يحاول الإتيان على الأريحية التي (تلبَّستني) ، وأنا أدعو هذه المجموعة من الضيوف إلى طاولتي.

بحركة رشيقة لفّتْ شالاً أبيضَ ذا أهداب حول رقبتها لفتين ؛ فتدلّى طرفاه على صدرها ، فصارتْ أقرب إلى هيئة رسامة ، أو متظاهرة من جماعة (السلام الأخضر).خلّصت شَعْرَها الكستنائي من لفّتي الشال وتركتْه ليعاود الانسياب إلى مرفئه القديم ، زورقاً تملؤه حبّات البن ، ورائحة القهوة تتخلل زَبَدَ البحر ، لتنتشي النوارس والأسماك والحوريات.

جلستِ وتناولتِ علبة سجائري واستلّتِ سيجارة منها ، فاستلّتِ معها شوكةً من أشواك الغيرة التي أدْمَتِ (ميانةُ هانس) بها قلبي.

نظرتها الحالمة التي تابعتِ حلقات الدخان المتصاعدة ، وتلك الإنفراجةُ الرقيقةُ على شفتيها تنبئان بروحٍ حالمة وقلبٍ ؛ ينطوي على شيء من أسرار جمال الفجر والأصيل.

وجاء شارلي. ربعة ، أسمر ، خلاسي الملامح. أنيق الهندام ، برغم بساطة ملبسه. قبّل گابي وصافح إيفا وهانس. قدّمتني گابي إليه ، فصافحني بحرارة ومودّة ، حبّبتاه إليّ.

سألته:

ماذا تشرب؟

تريث قليلاً ، ثم قال:

أنا من يجب أن يتولى السؤال! هذا لطف كبير منك ولكن...

- أنت اللطف كله ، وأنتم ضيوفي الليلة!

كان متحدثاً بارعاً ، مثقفاً ، وذا شخصية قوية. تجتمع في روحه صلابة الهنود الحمر وحيوية راقصي (السامبا) وصَبْرُ صيادي البحر الكاريبي. وراحت گابي تنظر إليه بإعجاب وهو يتحدث.

اكتفى بالقليل من(الشراب) ، ثم استأذن ، ورافقه هانس وگابي ، أما إيفا فأرادت مواصلة السهرة. وقبل أن يغادر حدّد موعداً للقاء جديد احتفالاً بتعارفنا.

لحظات استعدادهم للمغادرة ملأتني قلقاً ولهفة وتوجساً. بدأوا

يلملمون أغراضهم فتقلصت عضلات معدتي ، وعيناي لا تفارقان إيفا ، التي بدا أن مغادرتهم لا تعنيها ، فاتجهتْ عيناي بقلق نحو هانس ، الذي ظل يتابع حركات عدد من الراقصين على أنغام موسيقى حالمة. وشيئاً فشيئاً بدأت ظلال الهاجس المقيت تتراجع. لا وجود لذلك (الشيء) الذي هدد أحلامي الوردية الوليدة.

وحين أعلنتْ إيفا رغبتها في البقاء تذكرتُ أفراحَ أقاربنا في الأرياف ، وهم يعبِّرون عن الفرح بإطلاق العيارات النارية إلى السماء.

سألتُها:

كأس أخرى؟

- شكراً لك ، لقد اكتفيت! وشكراً لك ثانية لهذه الضيافة. لقد دفعتَ ثمن مشروبنا جميعاً ، وهذا ما لا يفعله الشباب الألمان. لقد بدأنا نعرف عن أهل الشرق أشياء رائعة.

- هذا من دواعي سروري! أتدرين أن اسم (إيفا) معروف في بلادي جيداً؟ كثيرون من مواطنيّ يعرفون أشياء عن (إيفا براون).

- أنا اعتقد أن حسنة هتلر الوحيدة أنه أحبها ، هذا إذا كان قد أحبها فعلاً. هل ترغب في الرقص أو التجوال؟

- أفضّل التجوال.

- إن ضفاف الراين في مثل هذا الوقت ساحرة الأجواء.

وتجولنا ، وكانت الأجواء عند ضفاف الراين ساحرة حقاً ؛ لا

يدانيها سحراً إلا منظر السيجارة بين أصابع إيفا الرقيقة الناعمة.

تمنيت أن يطول الزمن وتمتد المسافات ؛ لأسير والراين ؛ لأن كلّ ما حولي يؤجّج البهجة ويدعو إلى الاستبشار!

وتداعتِ إلى خاطري ذكريات شتى. ولعلها من المفارقات المؤلمة أن أتذكر في مثل تلك اللحظات ؛ المليئة شاعرية وسحراً ساعات الغروب في جبهات القتال ؛ تلك التي تختزل حزن الدنيا وأساها ، حتى لتبدو الابتسامة على الوجه شبحاً ، إنْ لم يُثِرْ مرآه الرعبَ فإنه يثير في النفس النفور.

حرصاً منه على أنْ يشعرني بالألفة دعا شارلي زميلاً له من ساحل العاج مسلماً ، وكان شاباً رائعاً لطيف الصحبة.

ولقد أحاطني بعناية فائقة ، ولا أدري أكانت مصادفة أم تخطيطاً أن خصّص لي مكاناً إلى جوار إيفا.

تكررت لقاءاتنا ، ثم دعتني گابي إلى عيد ميلادها. حضر حشد من أصدقائها وأصدقاء شارلي ، وكان بينهم عدد من الكوبيين والأفارقة.

بدأت الموسيقى تصدح ، فوقفت گابي وسط الحضور وقالت: لقد وعدتُ صديقنا العربي بالرقصة الأولى!

فصفّق الحضور مهنئين إياي بهذا المكسب الثمين.

راقصتها لمدة وجيزةٍ ، ثم قدمتها إلى شارلي ، وتوجهتُ إلى إيفا داعياً إياها إلى مشاركتي الرقص ، فاستجابتِ بابتسامة وحركة رشيقة.

رقص الكوبيون السامبا ، فملأوا الأجواء مرحاً ، عندها تمنيت أن يكون (أبو جنَيِّنه) حاضراً!

أسعدتني رفقة إيفا ، وقدّمتِ إليّ شاهداً على السموّ والتَّرفّع والسلوك الإنساني النبيل. لم أخلُ يوماً ، وأنا معها ، أو مع طيفها من نزوع إلى الشطط أو العبث ؛ ولكنّ رغبتي في الحفاظ على الهيبة والتحلّي باللياقة كانت تلجم ذلك المَيِّل.

كانت واحدة ممن خفّفوا حدّة الغربة واعتصار الحنين. وفي غمرة السعادة ، وفي الوقت الذي أخذت أوازن فيه بين مزايا كلّ من الهيبة والشطط ، لأختار واحداً منهما ، أنعُمُ في ظله بصفاء القناعة ، وأتحمل عواقبه غير آسف على الاختيار فاجأتني بعزمها على الرحيل. ستترك بون عائدة إلى بلدتها.

جلسنا في مقهى صغير في محطة القطار. منضدة حولها أربعة كراسٍ. جلستِ قبالتي ساهمة ، تُحرّكُ برتابة ملعقة صغيرة في قدح الشاي. تناولتِ قطعة دائرية من (الكارتون النشّاف) ، مما توضع فوقه أقداح المشروبات ، وكتبتِ عليها عنوانها قائلة:

هذا هو عنواني ، إذا رغبتَ في مراسلتي.

رحتُ أنظرُ إلى العنوان ، وسألت نفسي: هل تكفي هذه (النشافة) لامتصاص دموعي التي ستنهمر إنْ عاجلاً أو آجلاً؟

ولم يَعُدْ بالإمكان مواصلة السكوت وتَكَلُّف الوقار. لا ضير في قليلٍ من البوح! ولأكُنْ مباشراً وواضحاً ، فعَمّا قليل سيمضي كلّ

في طريق. وقلّبتُ في الذاكرة بحثاً عن شيء أقوله ، شيء يفي بالغرض ، ولا بأس في تعديل الصيغ ، أو الإضافة والحذف ، المهم أن يفي القول بالغرض ويفصح عن الغاية.

- في بلدي مَثَلٌ يقول: القبلة كالحرية ، تُؤخذ ولا تُعطي. ولكني سأطلبُها منكِ ، لن آخذها ، بل آمل أن أنالها برقّة.

قالت بنبرة حالمة:

أوه!

قامتْ من مكانها وجلستْ على الكرسي القريب مني ، وأمسكتْ يديَّ بكلتا يديها ، ثم عانقتني عناقاً ، عشْتُ كلَّ ثانية منه بكياني كله ؛ لأنه العناق الأول والأخير.

طال العناق ولم أدر كم طال. وأفقنا على صوت صافرة القطار ، تعلن عن مَقْدَمه وعن نهاية حلم سعيد.

* * *

زرقاء اليمامة وعبد الله البردوني

(صِدق الرؤية وصواب الرؤيا)

منذ أنْ بدأتُ التخطيط لموضوعات هذه المجموعة احتلّ هذا العنوان مكاناً بين عنواناتها.

توالت الكتابة ، وراحت المفرداتُ تطرّز الصفحات ، صفحةً تلو الأخرى. وعَرَفت الحكايات طريقها إلى حيث أرجو أن تصل. أخذَت العنواناتُ تصبح حكاياتٍ ، فنفدتْ ولم يبقَ منها إلا عنوان ، يحكي قصة أربع عيون ، اثنتين منها صارتا أسطورة شعبية ، وأخريين أفصحتْ عتمتُهما عن شيء من مأساة أمة.

وحين شرعتُ في كتابة الحكاية الأخيرة ، تَنبَّهتُ على أن مجموعتي (البربري وخضراء العينين) بدأت بحكاية عن العيون وستنتهي بحكاية عنها.. عيونٌ نرى الدنيا من خلالها ، أو نراها فيها.

لا أشك للحظة في أن النفوس تتوق إلى الاستزادة من سماع حكاية زرقاء اليمامة ؛ حين تروى في المجالس ؛ مثلما تفعل في أثناء رواية قصة عنترة بن شداد.

أعدادٌ لا حصر لها تعرف زرقاء اليمامة ، ولكنّ قلةٌ ، أو أعداد أقلّ كثيراً من تلك تعرف عبد الله البردوني.

كلاهما ، الزرقاء والبردوني تطلعا إلى المستقبل وعرفا ما سيحدثُ ، وكان مخيفاً. وحين جهرا بالقول لم يجدا آذاناً صاغية ، غير أن الوقائع والأيام أثبتتْ صدق ما قالا.

رأت فتاة اليمامة ما عجز الآخرون عن رؤيته ، وحين حذّرت قومها رفضوا الإيمان بقدراتها ، فأخذهم العدو على حين غرّة. ورأى البردوني الأمور على حقيقتها ، وكان كل شيء حوله وحولنا يؤكد صواب رؤياه ، ولكن الخدر والنعاس والكسل ، أو الخيانة والجبن والعبودية سادت الأجواءَ ، فعطّلتْ دَور السيوف ، وصارت الآذان تمجّ أصواتَ صليلها ، مثلما تستنكرُ صيحاتِ الغضب.

كلاهما استشرفا المستقبل. اتخذت الزرقاء البصرَ وسيلةً ،وجعل البردوني بصيرتَه منظاراً. كلاهما صَدَقَ ، وكلاهما اعتورتْ مقالته الشكوكُ ، فتكررت المأساة.

هو شاعر يماني ، يحمل فكراً وحباً لوطنه وأمته. اعتاض بصيرةً من بصره. بصيرتُه نظيرةُ بصر الزرقاء قوةً.

زمن طويل يفصل بينهما. زار البردوني العراق في بدايات العقد السابع من القرن الماضي ؛ للمشاركة في مهرجان شعري كبير ، شارك فيه كثير من الشعراء العرب لإحياء ذكرى أبي تمام.

بعد أن انتهت فعاليات المهرجان ، ضَيَّفَتْهُ كلية الآداب- الجامعة

المستنصرية- وكنا طلاباً فيها- وقد ذاع اسمه، ورددت المحافل الأدبية قصيدته بإعجاب ما بعده إعجاب. طلباتٌ كثيرة وجِّهتْ إليه، يرجوه أصحابها قراءةَ قصيدته التي صارتْ أنفسَ جواهر المهرجان؛ فاستجاب، ولكنه طالبَ الشباب العرب، ولاسيما اليمانيين بالإصغاء إلى مقدمة يسيرة، لها صلة بموضوع القصيدة.

في ذلك العهد كانت أعداد كبيرة من الطلبة العرب يدرسون في الجامعات العراقية على نفقة حكومة العراق.

تحدث البردوني عن واقع الأمة العربية، وعن المهام المطلوبة من شبابها. وراح حديثه يفيض حباً وألماً وثورة، ثم أخذ ينشد، وكانت أصداء قصيدته قد سبقته إلى المتلقين بشوط بعيد.

البردوني في إطلاله الثاني على جمهوره في (قاعة ساطع الحصري) في كلية الآداب؛ ليس هو ذلك الشاعر المغمور الذي أطلّ على الجمهور، في مهرجان أبي تمام، حيث ازدرته الأنظار لبرهة وجيزة، راح بعدها يسير بخطا ثابتة في سماوات الفن، مهيمناً على الألباب.

في المرة الأولى.. في المهرجان الشعري سبقه إلى المنصة الشاعر نزار قباني، ليلقي قصيدة بالمناسبة، وكان الله في عَوْن مَنْ يسبقه نزار في إنشاد الشعر!

بوسامته وأناقته وسحره اعتلى نزار المنصة، يرافقه رصيده من الإعجاب في نفوس الحضور، وراح يشدو فنقل الجمهور إلى عصر

أبي تمام ، ثم نقل كثيراً منهم ، ولاسيما العنصر النسوي نقلات أخرى ، ليطوف بهم في مروج خضر وبحار بلون اللاّزورد.

سيدة بين الحضور في الثلاثين من عمرها ، شقراء باهرة الجمال ، ترتدي معطفاً من الفراء الأبيض كانت أكثر الحاضرين تجاوباً مع نزار وهو يشدو ، وكأنّه يشدو لها وحدها. كانت على استعداد لتطوف معه في القطب الشمالي إذا أراد ، غير مبالية بالصقيع ، ليس ثقة بمعطف الفراء ، ولكن اعتماداً على ما في قلبها من حرارةٍ ، كفيلةٍ بإذابة جليد القطبين. ثم عاد نزار إلى قاعة المهرجان ، عاد إلى زمننا الحاضر ، يحيط به جمهوره ، وهم بين متعبٍ ومأخوذٍ ومبهور.

وجاء دور البردوني. اعتلى المنصة ووقف في مواجهة الجمهور. وقف في مواجهة جمهورٍ ، استنفد نزار طاقته وإعجابه. اعتلى المنصة بمشقة ، يتحسّس طريقه بتؤدةٍ ، ثم واجه الجمهور. كفيف البصر ، كثّ الشعر ، أجعده يرتدي سترةً وبنطلوناً غير متناسقين ، من أرخص الأنواع المعروضة مثيلاتها في سوق (تحت التكية) ، وقميصاً بلا ربطة عنق ، ويلفّ حول رقبته (يشماغاً) أحمر. تحسّس المنصة بيديه ، وكأنه يبحث عن شيء ، وأمسك بقدح ماء ، فرفعه إلى فمه وشرب نصفه ، وأعاده إلى مكانه ، ثم مسح فمه بإكمام السترة... رفع ساعده الأيسر ، وأطبق كفه ، وبإكمام السترة مسح فمَه.

حركةٌ أثارتِ موجةً من الضحك ، تناسى مَنْ صدر منهم اللياقةَ والرأفةَ. وتصدّرتِ سيدة الفراء الأبيض قائمة الضاحكين.

وما كان أروع موقف البردوني! لم يصدر عنه أيّ رد فعل ، وكأنّ الأمرَ لا يعنيه. تريّث قليلاً ، ثم قال: وجدتُ أنّ المتنبي يتألق حين ينظم قصيدة ، يكون حرف الرويّ فيها الميم ، ووجدتُ أبا تمام يتألق مثل تألقه حين يكون حرف الروي في قصائده الباء ، وليستِ بعيدة عنا رائعته في فتح عمورية (السيف أصدق إنباءً من الكتبِ) ؛ لذا فعلى أثره ، وهو يشدو هذه الرائعة سأسير.

وبدأت العيون تتطلع إليه ، وبدأ الشدو:

ماأصدق السيفَ إنْ لم يَنْضِهِ الكذبُ	وأكذبَ السيفَ إنْ لم يصْدُقِ الغَضَبُ
بيض الصفائح أهدى حين تحملها	أيدٍ إذا غلبتْ يعلو بها الغَلَبُ

وكأنه ألقى على وجوه الحاضرين أباريق من ماء بارد ، فأجفلوا وراحوا يغالبون خَدَراً ونعاساً ، خلّفتهما صحبة نزارٍ. وخيّم الصمتُ على الحاضرين ، والبردوني يناجي أبا تمام ، ويحكي له عن تقلّبات الزمان ، ويبكي مجداً مات ، ولم يخلّف وريثاً:

ماذا جرى.. يا أبا تمام تسألني	عفواً سأروي..ولا تسألْ..وما السببُ
يَدْمَى السؤالُ حياءً حين نسألُه	كيف احتفتْ بالعدا حيفا أو النَّقَبُ
اليومَ عادتْ علوجُ الروم فاتحةً	وموطن العرب المسلوبُ والسَّلَبُ
ماذا فعلنا؟ غَضِبنا كالرجال ولم	نَصْدُقْ.. وقد صَدَقَ التنجيمُ والكتبُ
فأطفأتْ شُهُبُ (الميراج) أنجمَنا	وشمسَنا.. وتحدّتْ نارَها الخطبُ

لم يبقَ وريثٌ للمجد. قلةٌ قليلةٌ تسعى إليه ، ولكنها مكبّلة بآلاف القيود:

ماذا ترى يا أبا تمام هل كَذَبَتْ أحسابُنا ؟ أو تناس عِرْقَه الذهبُ؟

عروبة اليوم أخرى لا ينمّ على وجودها اسمٌ ولا لونٌ.. ولا لقبُ

تسعونَ ألفاً لعمّوريّة اتّقدوا وللمُنَجِّم قالوا: إننا الشّهُبُ

واليوم تسعون مليوناً وما بلغوا نُضْجاً.. وقد عُصِرَ الزيتون والعنبُ

تنسى الرؤوسُ العوالي نارَ نخوتها إذا امتطاها إلى أسياده الذَّنَبُ

ولقد عرف البردوني الداء ، دلّته عليه بصيرته. إنهم الحكّام... (حكّامنا)...

حكّامُنا إنْ تصدّوا للحِمَى اقتحموا وإنْ تصدّى له المستعمِرُ انسحبوا

همْ يفرشون لجيش الغزو أعينَهمْ ويدَّعون وُثُوباً قبل أنْ يَثبوا

الحاكمون و (واشنطن) حكومتُهم واللامعون.. وما شَعّوا ولا غَرَبوا

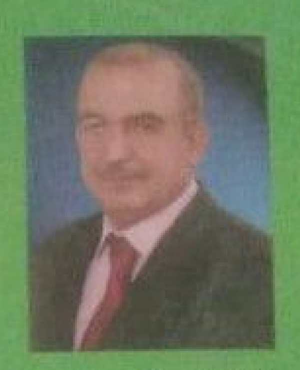
القاتلون نبوغَ الشعبِ ترضيةً للمعتدين وما أجْدَتهم القربُ

لهم شموخ (المثنى) ظاهراً ولهم هوىً إلى (بابك الخرمي) ينتسبُ

وما أشبه اليومَ بالبارحة!

* * *

قائمة المحتويات



المؤلف في سطور

- الاستاذ الدكتور جبير صالح القرغولي
- مواليد بغداد ١٩٥٢
- دكتوراه في علوم اللغة العربية. تخصص في الأدب والنقد الأدبي الحديث.
- يعمل حالياً استاذا في الجامعة العراقية - بغداد

من مؤلفاته

- شعر الحرب في العراق في العصر الوسيط

صدر له

- التصوير الفني في القرآن الكريم، دراسة تحليلية في جهود الباحثين عن مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة ٢٠٠٧
- مفكرة رجل أمي (مجموعة قصصية) عن مركز البحوث في الجامعة العراقية عام ٢٠٠٩
- حيوية صورة الصراع في لوحة الطرد في الشعر العربي، عينية ابي ذؤيب انموذجا (طبعة المجمع العلمي العراقي) / الطبعة الاولى -والطبعة الثانية عن دار الينابيع ٢٠١٢
- صلاة عند ضفاف بويب. قراءات في شعر السياب عن دار الينابيع ٢٠١٢
- أمنيات معطلة (مجموعة قصصية)عن دار الينابيع عام ٢٠١٢
- دنيا الوجد (رواية) عن دار الينابيع عام ٢٠١٢

اعمال تحت الطبع

- المعول وعش السنونو (رواية)
- الصورة الفنية في شعر البادية بين الابداع والتقليد
- (اسراب القطا) (رواية)

المشاركات

- شارك في مؤتمرات أدبية عدة
- له جهود وإسهامات في نشاطات سلامة اللغة العربية في القطر.



